الكلب فى عالم نجيب محفوظ

مصطفى بيومى

الكلب فى عالم نجيب محفوظ

مصطفى بيومى

فصل من

"معجم حيوان نجيب محفوظ"

يتسع الموقع الذى يحتله الكلب فى عالم نجيب محفوظ بحيث لا يمكن الإحاطة بدوره الكبير المؤثر إلا من خلال دراسته وتحليله عبر عدد من المحاور الرئيسة:

- الكلب كجزء من منظومة حيوانية وعلاقته الخاصة مع القط.
- الكلب كجزء من مكونات الحياة الإنسانية ومشكل فعال لها.
- تربية الكلاب والولع بها عند بعض شخوص نجيب محفوظ.
- الكلب كمسبب للرعب وجالب للأذى.
- المشتركات بين الإنسان والكلب وظاهرة التشبيه.
- انتشار الشتائم بالكلب فى الإطارين الجاد والفكاهى.
- دور الكلب فى بناء الحدث الروائى.

منظومة حيوانية .... والعلاقة مع القط

ينخرط الكلب - أحياناً - فى منظومة مشتركة مع غيره من الحيوان.

فى قصة "حياة مهرج" تتبدى موهبة حسن شلضم منذ طفولته: فمن آياته فى ذلك العهد البعيد أنه كان يحاكى بمهارة فائقة أصوات الكلاب والقطط والبقر والحمير والبوم والغربان. "همس - ٢٨١"

وفى قصة "الصدى" يصرخ الابن العائد بعد غيبة طويلة فى أمه التى لم تعد ترى أو تسمع: كنت أتساءل عما شكلنا بهذه الصورة الوحشية التى لا تعرفها الكلاب ولا الحمير ولا البقر ولا الجاموس. "خمارة - ٢٢"

ولا يجد العم زكريا مشقة فى أن يعول ابن أخيه اليتيم قاسم: إذ أن الحياة وخاصة فى هذا الحى من الحارة لم تكن تعلو كثيرا عن حياة الكلاب والقطط والذئاب التى تعثر على رزقها فى النفايات وأكوام الزبالة. "أولاد - ٣١٠"

وعندما تشتد الأزمات الاقتصادية وتحل المجاعات، يندفع البشر إلى أكل ما لا يؤكل عادة من الحيوان: كشفت الأيام عن أنيابها الحادة القاسية، وتضخم شبح الجوع كالمئذنة المجنونة، فشاع أن الناس يأكلون الخيل والحمير والكلاب والقطط، وأنهم عما قليل سيأكل بعضهم بعضا. "الحرافيش - ٤٩٨"

ويقول سليمان مبارك معلقاً على شكوى ابنته رندة من سوء حظ جيلها فى ظل سياسة الانفتاح الاقتصادى: جاء عصر أكل الناس فيه الكلاب والقطط والحمير والأطفال ثم أكل بعضهم البعض!. "يوم - ١٨"

لا يختلف الكلب فى المواضع السابقة عن غيره من الحيوان مثل القطط والبقر والحمير والبوم والغربان والجاموس والخيل والذئاب، فهو محسوب - بلا خصوصية تميزه - على عالم حيوانى تُقلد أصوات أعضائه ويُضرب بها المثل فى الوحشية والتدنى وتؤكل عند اشتداد الحاجة بالمخالفة للأعراف والتقاليد الإنسانية السائدة.

فى إطار هذه المنظومة "العامة" تتبدى علاقة "خاصة" بين الكلب والقط، وهى علاقة عدائية متوترة موصوفة بأنها خصومة غريزية. "حكايات - ٥٥"

تسعد أمينة برغبة فهمى فى خطبة مريم، وسرعان ما تنتبه إلى ما يكتنف هذه الرغبة من مشاكل وصعوبات: وغابت عيناها فى رؤى الأحلام السعيدة حتى بدا لها ما أيقظها فجأة فتراجع رأسها فى قلق كقطة أقبل نحوها كلب.. "بين - ١١٧"

أمينة هى القطة القلقة المذعورة، والمخاوف التى يجسدها الأب هى الكلب المزعج المخيف. ومن الجلى أن الصراع يميل إلى كفة الكلب الذى يبث الرعب ويثير القلق.

ويتخذ الصراع شكلاً آخر - ذا طابع إنسانى أيضاً - فى علاقة عاشور الناجى بابنة ولى نعمته قبل زواجهما: واستند إلى الجدار فلمح قطة تتوثب لتخويف كلب أسود يتنحى تجنباً للمعركة. "الحرافيش - ٢٣"

عاشور هو الأقوى بطبيعة الحال، ولكنه يتجنب القطة - الحبيبة احتراماً لمن ورائها وليس خوفاً أو تهيباً منها!.

وإذا كانت العلاقة السلبية بين الكلب والقط تعبر عن موقف إنسانى وتكثفه في العملين السابقين. فإن الصراع بينهما يبدو واقعياً وحيوانياً محضاً فى "أولاد حارتنا" حيث يسيطر البؤس على الكائنات البشرية والحيوانية معاً!.

فى عالم الحارة التعيسة قطط تموء وكلاب تهر وربما تشاجر النوعان حول أكوام الزبالة. "أولاد - ٢٧"

وفى موقع آخر يحتدم عراك القطط والكلب - كشأنه فى ذلك الوقت من اليوم - حول أكوام الزبالة. "نفسه -٥٢"

مشاجرات ومعارك حيوانية محتدمة ودائمة حول أكوام الزبالة. وهو ما يعبر بشكل غير مباشر عن عديد من المشاجرات والمعارك "الإنسانية" حول أكوام شبيهة!.

صراع غريزى محتدم. ولكنه لا يحول دون الجمع بين العدوين اللدودين فى موقف يستدعى وجودهما معاً.

فى قصة "الحب والقناع" يختلس لبيب النظر إلى زوجه فتحية وهو يرفع الشوكة إلى فيه، ويقارن بينها وبين القطط والكلاب "الشيطان - ١٥٦"

القطط والكلاب فى كفة واحدة مع المرأة المثالية التدينة، ورغبة شريرة ملحة ساخرة فى التحقير والابتذال: رغبة لا تقف عند حدود العداء وتراهن على وحدة الانتماء الحيوانى الذى يضم "الإنسانة" فتحية!.

الكلب والحياة الإنسانية

يمثل الكلب جزءً حياً نابضاً وضرورياً من ملامح الحياة الإنسانية التى يصعب تصور اكتمالها بمعزل عن وجود الكلب وغيره من الحيوانات الأليفة والمستأنسة التى تشارك الإنسان فى نثريات وجوده اليومى المألوف.

فى قصة "الورقة المهلكة" يعود الراوى بعد انقطاع طويل إلى "مدينة" الصفائح: وكانت مبانيها أكواخاً من الصفائح التى علاها الصدأ، تأوى رجالاً ونساءً وأطفالاً. وترعى فى عرصاتها المعز والكلاب. "همس - ١٨٥"

الكلب ضرورة من ضرورات المجتمع الإنسانى، والمدينة العشوائية الهامشية تضم الرجال والنساء والأطفال مثلما تأوى المعز والكلاب!.

ومن علامات الخراب والفراغ أن تخلو المدن والقرى والتجمعات البشرية من الحيوانات الأليفة المعتادة التى تصاحب الإنسان فى رحلته لتشكيل روح المكان المعمور.

يتخلى الجميع عن اخناتون وتتعرض مدينته الجميلة للخراب والهجر. ومن النافذة ترقب نفرتيتي مدينة النور وأهلها يبادرون إلى هجرها قبل أن تحيق بهم اللعنة. ترامى إلىّ هديرهم وبكاؤهم، وصراخ أطفالهم، ونباح كلابهم.. "العائش - ١٦٤"

يندمج بكاء الكبار وصراخ الأطفال مع نباح الكلاب لتشكيل إيقاع الحياة الآفلة، وبعد قرون عديدة تتكرر اللوحة فى قريتى العزيزية والبدرشين اللتين تعرضنا للبطش الإنجليزى فى ثورة ١٩١٩ كما يروى الشيخ متولى عبد الصمد: وضرب الجنود نطاقاً حول البلدتين المشتعلتين من بعيد يتربصون بالأهالى البؤساء الذين انطلقوا هائمين على وجوههم تتبعهم الأغنام والكلاب والقطط يرومون سبيلاً للنجاة من النار. "بين - ٤٥٠"

يفر البشر وتتبعهم الحيوانات فيقفر المكان.

بورسعيد بعد حرب ١٩٦٧ وتهجير سكانها مدينة خالية لا دليل فى شوارعها المهجورة على وجود الحياة: وتلهفت الآذان على سماع أى صوت، نافذة مفتوحة أو باب موارب أو غسيل يرفرف فى شرفة أو طفل يصرخ أو قطة تموء أو كلب ينبح. "الحب تحت - ١٠٤"

ولا تختلف مدينة النحاس الأسطورية عن مدينة بورسعيد الواقعية. فى مسرحية "الشيطان يعظ" يتأمل طالب بن سهل المدينة الخالية الصامتة ويقول:

- ألا ينبح فيها كلب أو يصيح ديك؟. "الشيطان - ٣٣٨"

وبعد الوباء تخلو الحارة التى يتأملها عاشور الناجي وهى ميتة بلا حياة: لا نأمة، لا قطة ولا كلب، لا رائحة لحياة. "الحرافيش - ٦٦"

رائحة الحياة ليست رائحة البشر وحدهم، ولكنها رائحة "الأحياء" من الكائنات البشرية والحيوانية معاً.

وهكذا تدب الحياة فى الحارة الميتة بعد عودة ساكنيها وزوال الوباء: ترددت أنفاس الحياة، ارتفعت الحرارة، تجاوبت الأصوات، هلت الكلاب والقطط، عادت الديكة تصيح فى الفجر. "نفسه - ٧١"

وتمتلئ "أولاد حارتنا" بعديد من المشاهد التى تجسد مشاركة الحيوانات - ومنها الكلاب - بما يجعل من "الإنسان" و "الحيوان" نسيجاً واحداً متداخلاً.

لا توجد فوارق جوهرية ملموسة بين الإنسان والحيوان: تـوارى الغلمان فى الحجرات، وحتى الكلاب والقطط أوت إلى الأفنية. "أولاد - ٣٨"

وقد لا يبقى فى الطريق إلا الكلاب والقطط والذباب، وتترامى ضجة المتجمهرين فى الخارج: حتى ابتلعت مواء القطط وبناح الكلاب. "نفسه - ٥١"

وعندما يوشك الفجر أن يطلع: أوى إلى المضاجع كل من فى الحارة حتى الفتوات والكلاب والقطط. "نفسه - ٥٦"

لا فوارق تحول دون "العطف" بين الغلمان والفتوات والأحياء وبين الكلاب والحيوانات الأخرى. جميعهم "أحياء" يحتضنهم مكان واحد، ولذلك تنتفي الغربة بين الكلاب والبشر المألوفين المقيمين. الغربة مع الوافدين الغرباء مثل عرفة الذى يرمقه الجميع فى دهشة "حتى" الكلاب والقطط. "نفسه - ٤٠٨"

القطط والكلاب من "سكان" الحارة الأصلاء، ومن نافذة مسكنه الأرضى يرقب عرفة: أقدام وعجلات وكلاب وقطط وحشرات وأطفال. "نفسه - ٤١٠"

إن الكلاب من المفرادات المألوفة فى الحياة، ولذلك فهى تملك "حق" المشاركة فى الأحداث ومراقبتها: حتى الكلاب رمقته بأعينها. "نفسه - ٤١٤"

وها هو كلب لا يمثل ظهوره نشازاً ولا يعبر "تثاؤبه" عن مفاجأة: واعترضهما خطوات فى منتصف الحارة كلب رابض فوقف مستطلعاً، وجرى نحوهما متشمماً، وتبعهما خطوات ثم توقف وهو يتثاءب. "نفسه - ٤٢٥"

عشرة طويلة راسخة بين الإنسان والكلب الذى يتحول إلى "لفظ" مألوف إلى درجة الابتذال من كثرة ترديده والتعامل معه.

"يتفلسف" ياسين وهو يقول لأخيه فهمى عن "الجمال": هو الذى مللت لحد السقم، كاللفظ الجديد يبهرك معناه لأول مرة ثم لا تزال تردده

وتستعمله حتى يستوى عندك وألفاظ مثل "الكلب" و"الدودة" و"الدرس" وسائر الأشياء المبتذلة. "بين ـ ٣١٩"

ابتذال التعود والألفة والتكرار الذى لا يثير الدهشة!.

تربية الكلاب والولع بها

عند هذا الحد من التداخل والاندماج بين الإنسان والكلب لا يبدو مستغرباً أن يظهر اسم "كليب" ـ تصغير كلب ـ الذى يحمله واحد من رجال الفتوة قنصوة. "الحرافيش ـ ٢٠"

وقد يظهر التشابه "الشكلى" بين الإنسان والكلب.

محمد الفل صاحب الجراج. الذى كان أول من أغوى نفيسة بعد نهاية علاقتها العاطفية الجنسية مع سلمان البقال، له أنف ضخم صخرى وفم عريض كفم البولدج. "بداية ـ ١٦٦"

أما "فم" أم هانى فترتسم عليه ابتسامة واسعة تتسع لتسلل بولدج. "أفراح ـ ٣٢"

ولكن أهم ملامح التداخل والتآلف والاندماج تتجسد فى محبى الكلاب وهواتها المولعين بتربيتها والعناية بها.

تحلق خيالات زيطة صانع العاهات ـ وهو سوداوى كاره للبشر ـ فيرى المعلم كرشة مطروحاً تحت عجلات الترام يمزق أوصاله ثم يلمون أشلاءه

فى مقطف قذر يبيعونه لهواة الكلاب. "زقاق ـ ٥٦"

وعلى الرغم من أن هواة الكلاب لا يطعمون كلابهم لحوم البشر ـ فإن الخيال الأسود الحاقد يشير إلى وجود هؤلاء الهواة ويأبى إلا أن يضفى عليهم وحشية مقززة.

من هواة تربية الكلاب سميرة عمرو عزيز التى تسكن فى حى الظاهر وتصادق كثيراً من الأسر اليهودية فتتخلى عن تقاليدها الشعبية: وتعلمت العزف على البيانو. وربت كلبة لولى كانت تصحبها فى نزهاتها. "حديث ـ ١١٤"

وفى قصة "حياة للغير" يبدو الكلب الأبيض الصغير مصاحباً وملازماً دائماً للآنسة سمارا ويحظى باهتمامها ورعايتها واهتمام من حولها مثل عبد الرحمن أفندى الذى يشير إلى الكلب سائلاً:

ـ كيف هو اليوم.

ـ تم شفاؤه .. الحمد لله ..

فضحك قائلاً:

ـ لعل هواء الإسكندرية لم يوافق مزاجه ؟!

ـ على العكس كان يعدو على الشاطئ والدنيا لا تسعه من الفرح..

مرض وشفاء ومزاج وفرح، فكأن الحديث يدور عن طفل مدلل وليس عن كلب!.

ليس غريباً بعد ذلك ان تنحنى سمارا لتلاعب كلبها الصغير. وجعلت أناملها تتخلل شعره الأبيض الطويل. ومضى الكلب يلعق يدها مسروراً ويثب على ركبتيها وذنبه يرقص طرباً. "همس - ٢٤١"

وثمة كلب ثالث يحظى بتدليل واحترام فى قصة "يقظة المومياء" يفوق بكثير ما يحصل عليه الفلاحون التعساء. محمود باشا الأرنؤوطى. تركى الجنس مصرى الوطن فرنسى القلب والعقل. وكلبه "بيميش" شهير ومهاب وعرضة للسارقين من بنى الإنسان الذين يسطون على طعامه"!.

خدم الباشا يمسكون بتلابيب صعيدى ويوسعونه ضرباً ولكماً. ثم ساقوه بشدة إلى سعادة الباشا وقال له أحدهم:

- يا صاحب السعادة ضبطنا هذا اللص وهو "يسرق" من طعام بيميش.

ويعلق الراوى الفرنسى: وكنت أعرف بيميش حق المعرفة، فهو كلب الباشا العزيز وآثر مخلوقات الله بقلبه بعد زوجه وأولاده، وهو يعيش فى قصر الباشا منعماً مكرماً، يقوم على خدمته خدم وحشم، ويكشف عليه طبيب بيطرى مرة كل شهر. ويُقدم له كل يوم لحم وعظم ولبن وثريد. ولم تكن هذه أول مرة يسطو فيها الصعايدة على غذاء بيميش. "نفسه - ٩١"

المقارنة العابرة تكشف عن الفارق الشاسع بين الكلب المدلل والبشر الجوعى. الكلب مرفه مدلل مخدوم مُعالج يتناول أطيب الطعام، والفلاح لا

يطمع فى أكثر من سرقة بعض الطعام المخصص للكلب الذى يحتل فى قلب الباشا مرتبة سامية تلى الزوجة والأولاد ولا تُقارن بـ "لا مكانة" الفلاحين فى قلبه!.

سميرة وسمارة ومحمود الأرنؤوطى مولعون بالكلاب ومغرمون بتربيتها، وفى هذه الهواية نجد بعض مفاتيح شخصياتهم: التفرنج والاستغراب عند سميرة، الرقة والدلال عند سمارا، التعالى الطبقى والقسوة عند الباشا.

الهواية تنم عن الشخصية، وقد يتحقق الكشف بشكل عابر كأن يوصف عزيز صفوت من حبيبته الغارقة فى حبه بأنه إنسان: يتذوق الشعر والموسيقى ويحب الكلاب. "الباقى - ١٣١"

وتبدو "الهواية" هى "الحياة نفسها" بالنسبة للست نجية بطلة الحكاية رقم "٢٦" من "حكايات حارتنا".

امرأة وحيدة: بيتها مزرعة قطط وكلاب، وفى رحابها المترعة بالرحمة والسخاء تنمحى الخصومة الغريزية بين الكلاب والقطط فهن يعشن فى إخاء ومودة. "حكايات - ٥٥"

"الوحدة" هى مفتاح الشخصية، والقطط والكلاب هى "المعنى" الذى لا تجد غيره. إن التواصل يعز مع البشر. فليكن البديل فيما تربيه وتعيش له ومن أجله: وتزعم أيضاً أن الكلاب والقطط تخاطبها بلغاتها الخاصة وأنها

تفهمها، ولكي تثبت صحة كلامها تمضى فى محاكاة اللهجات القطية والكلبية فنغرق فى الضحك.

لا يكاد يطرق بابها أحد، لكثرة الكلاب يتجنب الناس زيارتها. حتى الخدم لا يطيقون خدمتها، فهى وحيدة فى بيتها ولكن تؤنس وحدتها الكلاب والقطط والعفريت المؤاخى. "نفسه - ٥٦"

تنفصل نجية عن الناس بقدر اندماجها فى عالمها الخاص حتى تتقن لغة معاشريها من القطط والكلاب. واللافت للنظر أن الناس يتجنبونها خوفاً من الكلاب دون القطط. ولكن ما يخافه العاديون من الناس هو مصدر الأنس والمودة فى حياة مقفرة لامرأة تصنع الأساطير وتروض العفاريت وتسعى بإصرار ودأب إلى قهر الوحدة والفراغ.

يختتم الراوى حكايته بما تقوله أمه للجارة الغريبة:

- على الإنسان أن يعمل حسابه لساعة الأجل.

فتجيبها جادة وهى تبتسم:

- ستنبح الكلاب حول جثتي وتموء القطط. ويحضر أخى ليغمض عينى. ثم يفعل الله ما يشاء. "نفسه - ٥٦"

الإدانة - بدرجات متفاوتة - هى ما قد نستشعره تجاه "الهواة" المتغطرسين المتطلعين المدللين. ولكن نجية أقرب إلى "الاحتراف" والتفرغ

الكامل لما يهواه غيرها في أوقات الفراغ. الأمر بالنسبة لها "عمر فارغ" وحياة مجدبة وبشر يعطون ظهورهم لها، وقطط وكلاب تقبل عليها لتؤنس الوحدة وتنذر بالموت!.

ولصقر الموازيني حكاية سحرية أخرى ذات بناء فني متسق ومشبع بالمرارة والسخرية معا.

توفى أبوه: لا يورثه إلا أسرة مكونة من أم وعمة وأختين في سن الزواج وكلبة. "نفسه - ١٠٧"

عالم من النساء، و"الكلبة" معطوفة على الميراث الثقيل بلا حواجز أو فواصل. الكلبة واحدة من أعضاء الأسرة. ولا يختلف حظها ونصيبها عن حظوظهن وأنصبتهن: ومقضى على صقر وحده أن يعمل بمرتب ضئيل ليعول أربع نساء و كلبة. "نفسه - ١٠٨"

عالم من القهر والكبت والحرمان والمعاناة، ولا تنجو الكلبة - الأنثى من مصير نساء الأسرة الفقيرة الحزينة: حتى الكلبة تضطرب في جنبات البيت مختنقة، ممنوعة من الانطلاق خوفا عليها من القذارة، تلاعب الضيف بعنف، تنقض على ساقه تتمسح بها، يجن جنونها لدى سماع نباح يترامى.

لأنها "كلبة". فهي تصرح وتبوح بما تعجز نساء البشر عن التصريح والبوح به. المعاناة واحدة، ولا شك أن الشكوى واحدة، ولكنها معلنة عند الكلبة مخنوقة عندهن.

وتنجح الكلبة فيما تفشلن فيه: ويوما أرى كلبتـه فى الطريق وقد تدلت بطنها وانتفخت فأرمقها بابتسام وإعجاب..

الكلبة وحدها وهبت حارتنا ذرية جديدة. "نفسه ـ ١٠٩"

حكاية بارعة السخرية عميقة الرؤية. تعجز نساء البشر عن العطاء والخصوبة والمنح. وتفلح الكلبة التى تقودها الغريـزة والفطرة. سجن كئيب مظلم يضم الجميع. والحريـة من نصيب المصرين عليها والساعين لها دون المقيدين والمكبلين بالعقل الزائف والقيم الميتة الفاسدة المفسدة لجوهر الحياة.

لهواة الكلاب ومحترفى الإقامة معهم خصوصية لا يمكن القياس عليها. وهى خصوصية لا تصلح لاستخلاص موقف إنسانى عام. ذلك أن هذا الموقف يبدو متناقضا ومزدوجا بحكم الاختلاف الحتمى بين أفراد الجنس البشرى بأمزجتهم المتعددة.

قد نجد مفتاحا مهما للفهم فى الكلمة الغاضبة للسيد سليم علوان وهو يصف من حوله بعد فساد مزاجه وتوتر أعصابه بسبب المرض: كلهم كلاب.. بيد أنهم أخذوا عن الكلاب نجاستها، وزهدوا فى أمانتها!.

"زقاق ـ ١٧٣"

النجاسة تعبير عن السلبية، والأمانة تجسيد للإيجابية، والإنسان يأخذ منهما ويتشبه. و الخوف من الكلاب أحد الوجوه السلبية فى علاقة الإنسان معها!.

الرعب والأذى

لا تخلو الكلاب من خطورة تثير الرعب والخوف، ولقد مر بنا تجنب الزوار للست نجية بسبب كثرة ما عندها من كلاب. "حكايات ـ ٥٦"

ربما يخافون عضة الكلب، تلك العضة ـ الإشاعة التى يتسع لها العالم السحرى الأسطورى الذى يشكله نجيب محفوظ فى "ليالى ألف ليلة".

يتعرض صنعان الجمال لانقلاب شامل فى طباعه وسلوكه بعد مغامرته الغريبة مع العفريت، ويقول لابنه فاضل بفظاظة:

ـ دعنى وحدى.

ـ كلب عضك؟

ـ من قال لك ذلك؟

ـ أمى

لا تجد الأم ما تبرر به حالة زوجها إلا عضة الكلب، وهو ادعاء قد يحظى بتصديق الابن ولا يجد اقتناعا مماثلا عند إبراهيم العطار الذى يقول متعجبا:

ـ أى كلب هذا! ، ولكن ما أكثر الكلاب الضالة. "ليالى ـ ١٩"

لا يملك العطار على الرغم من شكوكه النابعة من خبرته إلا التسليم، وفى القهوة يفسر ما أصاب صديقه وأفسد طباعه مكررا مقولة الأم

لابنها:

ـ عضة كلب متوحش.

ويجد عجر الحلاق متسعا للتفلسف:

ـ ما الإنسان؟.. عضة كلب أو قرصة ذبابة. "نفسه ـ ٢١"

الكلاب بريئة مما أصاب صنعان. ولكن الواقع الذى لا يألف التعامل مع العفاريت وألاعيبهم يرى فى عضة الكلب المتوحش سببا وحيدا منطقيا ومقنعا يتوافق مع التجارب الإنسانية.

وحتى بعد تصاعد الأحداث وإعدام صنعان وما شاع عن اتصاله بالعفريت. يأبى الطبيب عبد القادر المهينى إلا التأكيد على اتهام الكلب:

ـ لعلها عضة الكلب. هى الأصل ثم تفرع عنها خيالات مرض خبيث لم يعالج كما يجب.

الاتهام لا يتقصر على الكلب المجهول. فهو يمتد أيضا إلى العطار الذى أساء العلاج فتضاعف المرض. ولذلك يحتد إبراهيم العطار فى رده:

ـ لا يوجد من هو أخبر منى بمداواة عضة الكلب، آخرهم كان معروف الاسكافى. "نفسه ـ ٣٦"

قد تكون الكلاب بريئة فى واقعة صنعان. ولكن جرائمها شائعة ومتكررة بدليل ما يقوله الطبيب والعطار اللذان يتصارعان على العلاج!.

العض شائع إذن، والدليل أن جمصة البلطى بعد إسدال الستار على الموضوع كله يفكر متشككا:

هل حقا سخرك عفريت يا صنعان أو اتلفتك عضة كلب؟!. "نفسه ـ ٣٨"

الكفة متوازنة بين الكلاب العلنية الكثيرة والعفاريت الخفية التى لا يعاشرها إلا القليلون!.

وتتحول الكلاب المسعورة وعضاتها المؤذية إلى أدوات تشبيه تصف بعض الأفعال الإنسانية الغادرة الموجعة.

ينقلب السيد سليم علوان بعد مرضه وعودته إلى العمل إنسانا ساخطا متذمرا: ولما أن خلا المكان تنهد من صدر ضعيف وقال بصوت لا يكاد يسمع: "كلاب.. كلهم كلاب.. عضونى بعيونهم الحاسدة!". "زقاق ـ ١٧٢"

العيون الحاسدة تعض وتؤلم وتزيل نعمة الصحة والحيوية، والعضات الإنسانية تقسو على القلوب فيصعب نسيانها. يقول المعلم كرشة لابنه حسين بعد طرده من العمل فى معسكرات الإنجليز وعودته إلى البيت عاطلا: استغنوا عنك؟! ما شاء الله!.. وهل بيتى تكية؟!.. ألم تنبذنا يا همام؟.. ألم تعضنى بنابك يا ابن الكلب؟. "نفسه ـ ٢٠٧"

وفى قصة "أمشير" يعرف يحيى تفاصيل التاريخ المشين لعائلته ويفكر: هل يطلق الكلاب المسعورة بعضها على بعض لتقول العدالة كلمتها القاسية فى عويس وجندى ومحروس والجميع؟!. "الشيطان ـ ٨٢"

ليست الكلاب وحدها التى تعض، وليست وحدها المسعورة. من بنى الإنسان "مساعير" يعضون بعيونهم الحاسدة وينهشون بأنياب الجحود ونكران الفضل ويتصارعون بلا رحمة فى غابة لا تعرف العدل والإنصاف!

الكلاب المسعورة فزاعة مخيفة يلجأ إليها الإنسان كقناع لتجسيد بشاعة الإنسان، وإذا كانت الكلاب تؤكل فى أزمنة الأزمات والمجاعات مع حيوانات أخرى، وإذا كانت تؤكل بمفردها فى الزمن الذى يقدم حليم الأسوانى شهادته عليه: ساءت الأحوال، وثار الأقباط فى سخا، واشتدت الحال سوءاً فعم البلاء والجوع حتى أكل الناس الكلاب والآدميين. "أمام - ١٤٠"

إذا كان الأمر كذلك، فإنه لا يعدم صورة عكسية تأكل فيها الكلاب الإنسان بعد موته!. يا له من تهديد مقزز أن تُلقَى الجثة الآدمية إلى الكلاب لتنهشها!. وهو "تهديد" يتكرر كثيراً فى "أولاد حارتنا".

قتل قاسم لا يكفى لإشباع شهوة الانتقام، فلابد من التمثيل به بعد موته: هاتوا جثة قاسم لتأكلها الكلاب. "أولاد - ٣٨٠"

والفتوة الشرس مهدد الكرامة يعلنها و اضحة وصريحة عن قاسم أيضا: لن يهنأ لى بال حتى أرمى بجثته إلى الكلاب!. "نفسه - ٣٨٠"

أما ناظر الوقف فيقول لعرفة ببساطة القادرين الأقوياء: لو كان مقصدى قتلك، لكنت الساعة فى بطون الكلاب. "نفسه - ٤٤٠"

قد يكون صحيحاً أن الشاة لا يضيرها سلخها بعد ذبحها، ولكن الإنسان صاحب القدرة على التخيل يستطيع أن يرى مصيره فيوشك أن يموت حياً!.

المشتركات والتشبيه

ما أكثر المشتركات - الحقيقية والمتوهمة - التى تستدعى التشبيه والترادف بين الإنسان والكلب.

قد يتعلق الأمر بالغريزة الجنسية أو التشرد، وقد يتمثل التشبيه فى محاور مثل التبعية والحراسة والشم القوى والخفة والدناءة، وقد ترتبط بعض الخواص الكلبية كالمطاردة والإحساس بالخطر قبل وقوعه بشخوص مُطاردين مهددين، وأخيراً فإن نباح الكلب قد يظهر فى إطار صورة لا تكتمل بغير هذا الإيقاع الصوتى الدال.

●● "تتمتع" الكلاب بحرية جنسية يختلف موقف الإنسان منها بما يعكس تكوينه الثقافى وسمات شخصيته.

الاستنكار والإدانة نجدهما عند الشيخ طه فى قصة "روض الفرج"، فهو يقول لزوجته السابقة فى قسوة: هل سفلتِ يا فاجرة إلى مرتبة الحشرات والكلاب؟. "همس - ١٢٧"

شبح الممارسة الجنسية بين الأم وابنها يدفع بالصورة الدونية

للحشرات و الكلاب إلى ذهن الشيخ الورع المتدين، وهذه الدونية المدانة نفسها تبدو متوافقة ومنسجمة مع فلسفة محجوب عبد الدايم فى الحب! . يقول محجوب لعلى طه "متفلسفاً" ومواسياً: هذا جزاء من يهيم بنظريتك فى الحب. ألا ترى أن الكلاب تعالج الحب بطريقة أدعى إلى السعادة والراحة؟. "القاهرة - ٨٩"

يبدو النموذج الكلبى فى التعامل الحر مع الغريزة هو الأدعى إلى السعادة والراحة عند محجوب الذى لا يعترف بالعواطف والمشاعر فى إطار فلسفى شاذ لا يخص سواه! . ولكن هذا الإطار الدونى يتحول فى قصة "أهل القمة" إلى ما يشبه القانون العام الذى يتجانس مع الانفلات الاقتصادى الانفتاحى! .

يزور الضابط محمد فوزى سوق ليبيا. ويغادره مصدوماً و"العبث" يتأبط ذراعه. ما جدوى القيم والقوانين والأخلاق فى ظل الانفتاح الاقتصادى الذى يكتسح طوفانه كل شئ؟! . وما الذى يبقى لأمثال الضابط من أصحاب المبادئ والضمائر؟.

يشير "العبث" إلى شجرة ضخمة ويقول للضابط:

- أى ضخامة. ما عمرها؟ ستعيش بعدك طويلاً. إنها لا تعرف القيود، تحيا حياة مطلقة.

وأشار أيضاً إلى كلبين يتلاعبان وتمتم:

ـ يعيشان مثل الشجرة، حياة مطلقة، لا يعرفان الضمير ولا يخافان الموت..

هذا هو مصير الإنسان وحقيقة حياته في ظل الانفتاح والحرية المطلقة، إنسان بلا قيود:

ـ الإنسان الحقيقي مثل الشجرة، مثل الكلبين. "الحب فوق ـ ٨٤"

للكلب غرائزه وللإنسان تميزه الأخلاقي الذي يهذب الغرائز ويغلفها بالاحترام، وما أتعس النظام الذي يحول الإنسان إلى شبيه للكلب والشجرة!.

●● تدافع حسنية الفرانة عن زوجها جعدة. فيرد زيطة صانع العاهات متعجباً ساخراً: هذا المخلوق الذي تعاملينه كما تُعامل الكلاب الضالة؟. "زقاق ـ ١٢٦"

الكلاب الضالة لا تحظى بالاحترام والتقدير، وكم من البشر ـ مثل جعدة البائس ـ يتعرضون للمعاملة نفسها!.

زيطة نفسه واحد من هؤلاء البشر ـ الكلاب!، ويأتي التشبيه في سياق العطف والشفقة وليس السخرية والتحقير. قبل سفره لأداء فريضة الحج. يقول السيد رضوان الحسيني لأصدقائه معلقاً على قيام زيطة والدكتور بوشي بنبش القبور وسرقتها: أحد الرجلين كان يقتات على الفتات. وقد

نبش القبر لعله يجد بين عظامه النخرة لقمة يستسيغها، كالكلب الضال يلتقط رزقه من أكوام الزبالة. "نفسه - ٢٧٣"

لا مأوى ولا طعام، وقبل ذلك لا احترام ولا تقدير!.

وليس مستغرباً أن يبدو الإنسان مجهول الهوية الخارج من القبو ليواجه الحياة بلا سلاح فى قصة "أهل الهوى" شبيهاً بالكلب الضال: هام على وجهه فى الحارة مثل كلب ضال.. "رأيت - ٩"

إنسان بلا تاريخ واضح وبلا مستقبل محدد، محكوم عليه - مثل الكلاب المتشردة الضالة - أن يهيم على وجهه في رحلة مجهولة بلا انتماء إنساني!.

وحتى الذين يملكون الانتماء والعائلة والعمل قد يهيمون كالكلاب إذا فقدوا الأمل والمعنى والجدوى، وعلوان فواز محتشمى واحد منهم: جريح القلب والكرامة. أهيم على وجهى ككلب بلا مأوى. "يوم - ٤٦"

إنه يفتقد المأوى - الروح وليس مجرد المسكن المادى التقليدى!.

ما أشرس هؤلاء عندما يعلنون تمردهم على المجتمع ورفضهم له متحولين إلى قوة تدمير وإفساد. تنتشر الجرائم فى "ليالى ألف ليلة" ويقول أحد المفسرين للظاهرة: أو أنه أحد الصعاليك العاجزين عن الزواج. إنهم يزحمون الطرقات كالكلاب الضالة. "ليالى - ٢٥"

لا تتورع الكلاب الضالة عن شئ، ولا يتـورع الشبيه الإنسـانى لهـا عن اغتصاب الطفولة البريئة. النساء الساقطات كثيرات، وليست ياسمينة هى الأخيرة: وقالت لنفسها إنها ليست أول امرأة فى حياة بيومى ولن تكون آخرهن. وأنه حول أكوام الزبالة تكثر الكلاب الضالة. "أولاد - ٢١٤"

تعى ياسمينة طبيعة الدور الذى تلعبه وحقيقة موقعها فى حياة الفتوة، وهى تعرف بوضوح أن اللوحة مقززة ومنفرة؛ ولكنها لا تملك بديلاً!.

●● يبحث الكلب عن الحماية فى ظل الإنسان فيتبعه لائذاً بظله. ولا يختلف كثير من البشر - مع تعدد وتنوع الدوافع - عن الكلب التابع.

الولاء والإخلاص للعرش الفرعونى هو ما يدفع الحاجب حـور إلى اتباع الملك كاموس وأسرته فى هجرتهم إلى النوبة بعد مقتل سيكننرع وسقوط طيبة:

- وأنت يا حور؟..

- إن واجبى يا مولاى أن أتبعكم كالكلب الأمين. "كفاح - ٦٠"

الوفاء والإخلاص من سمات الحاجب حور. وفى الرواية نفسها تبدو الصفتان من مميزات جماعة كاملة كما يقول أحمس المتنكر فى زى تاجر للأميرة الهكسوسية: ولكن قوم زولا يأنسون إلى الناس سريعاً ويخلصون المودة لمن يصادقهم. ويتبعونه كالكلب الأمين. "نفسه - ٨٤"

يرضى حور بدوره ويتحمس له، ويقنع قوم زولا ويخلصون، ولكن الممثل المعتزل - بعد التشويه الذى تعرض له - لا يرضى ولا يقنع. يهجر مرزوق أنور بيت زوجه الممثلة فتنة قائلاً لنفسه بأنه لم يكن أمامه إلا إحدى اثنتين، فإما حياة كلب أمين أو قواد. "الحب تحت - ١٨٣"

وإذا كان مرزوق يميز بين النمطين ويرفضهما معاً، فإن القواد فرج إبراهيم يمزج بينهما!. تفكر حميدة فى متابعها الدائم اللحوح: ترى ماذا هو فاعل! أيقنع بتأثرها كالكلب؟... "زقاق - ١٥٨"

رجال يشبهون الكلاب فى تبعيتهم النابعة من الإخلاص أو المصلحة، وفى رفضهم المرتبط بالكرامة.

ونساء أيضاً!.

على كورنيش الإسكندرية تتسكع ريرى ويرصدها عيسى الدباغ فى جو من التأهب الذى يغلفها: كأنها كلب مهجور يلتمس عابراً ليتبعه. "السمان - ٨٩"

وفى الإسكندرية أيضاً تلوح زهرة فى عينى سرحان البحيرى: فلاحة بعيدة عن منبتها.. غريبة فى بنسيون.. كالكلب الضال الأمين فى سعيه وراء صاحب.. "ميرامار - ٢٠٦"

ريرى العاهرة وزهرة الجادة تتفقان فى منظور الرجلين، واتفاقهما فى البحث عن الأمان والحنان والدفء المفقود!.

والكلب التابع الأمين المخلص يصلح حارساً مخلصاً، وهى وظيفة يؤديها بعض رجال نجيب محفوظ حماية للنساء تحديداً!.

محمد الساوى يصحب كريمة، زوجة عم خليل صاحب الفندق. ويتساءل صابر الرحيمى: ترى أين هى ذاهبة مع كلب الحراسة؟. "الطريق - ٣٢"

وفى قصة "نور القمر" يبدو حنفى داود فى علاقته مع نور القمر ككلب الحراسة الذى يحول دون الضابط المتقاعد العاشق أنور عزمى و تجربة المغامرة: ألا يجدر بى أنا المغامر بالتهريب أن أغامر بالاقتحام؟!. ولكن كيف وهو متصد لى مثل كلب الحرّاسة؟!. "الحب فوق - ٤١"

الفارق الوحيد بين الحارسين أن محمد الساوى يحرس لحساب غيره فى إخلاص التابعين. وحنفى داود يحرس لحساب نفسه فى دأب العاشقين!

●● حاسة الشم القوية من أبرز سمات الكلب، وهى حاسة يعيها الإنسان وقد يتمناها!.

سعيد مهران هو أكثر شخوص نجيب محفوظ إدراكاً لهذه الحاسة وخوفاً منها فى إطار إحساسه الدائم بالمطاردة: قد يجدون فى البدلة أول خيط يوصل إليك. وقد تشمها الكلاب فتنتشر فى جهات الأرض. "اللص - ١٦٩"

لابد للشرطة أن تستعين بالكلاب، ولذلك فإن خوف سعيد من البشر

الذين يطاردونه لا ينفصل عن خوفه من "سلاح" الشم الذى يتبعهم: يجب ألا تسبقنى الحوادث. إنهم يتفحصون الآن البدلة وهناك الكلاب. "نفسه - ١٧٧"

اللص يخاف الحاسة المهلكة، والعاشق الولهان يتمناها!. أنور عزمى هو المحب الذى يحلم. ونور القمر فى القصة التى تحمل اسمها هى المحبوبة المُشتهى شمها: لو كان لى أنف كلب لشممت أنفاسك. "الحب فوق - ١١"

وتتخذ العلاقة طابع التشبيه المباشر فى قصة "تحت المظلة": رأى المتجمعون تحت المطر نفراً من الرجال ذوى هيئة رسمية يتجولون غير بعيد من المحطة كأنهم كلاب تشمم. "تحت - ١٣"

وليست القصة فى مجملها إلا صراعاً غير متكافئ بين الناس "العاديين" والسلطة القدرية الغاشمة!.

●● كم من البشر الذين يتشبهون - فى ابتذالهم وتهافتهم - بالكلاب. الدناءة والخفة هما المشترك الذى يبدو غريزياً ومنطقياً عند الكلاب ويبدو مهيناً ومسيئاً للرجال.

الغانية رادوبيس تشير إلى القوم اللاهين حولها وتقول ضاحكة: رأيت هؤلاء الرجال المبرزين، وصفوة مصر سيدة الدنيا، يسجدون عند قدمى. وقد رُدوا إلى الوحشية، ونسوا حكمتهم ووقارهم، كأنهم كلاب أو كأنهم قردة!. "رادوبيس - ٥٦"

الشهوة قادرة على أن تذل أعناق الرجال وتنسيهم وقارهم وحكمتهم. وليس مثل ياسين عبد الجواد فى ضعفه المزرى أمام شهواته. فمن المنطقى إذن أن يكون الأكثر تشبهاً بالكلب الذى لا يعف بحكم غريزته عن شئ!.

شهوة ياسين مولعة بالمرأة لذاتها لا لمعانيها ولا لألوانها. تعشق الحسن ولا تعزف عن القبح. والكل عندها فى الأزمات "سواء" كالكلب يلتهم بلا تردد ما يصادفه في القمامة. "بين ـ ٢٦٥"

لا يميز ياسين عندما تشتعل رغباته بين الحسن والقبح. فالعمى يصيبه وينقلب من إنسان يعقل ويدبر إلى كلب ينبش وينهش!.

الروائى هو المسئول عن الصورة الكلبية السابقة، وهو أيضاً مسئول عن تجسيد أحاسيس ياسين فى زيارته لأم مريم ناوياً خطبة الابنة فإذا به يقع أسيراً لشهوته التى تطلب الأم: هل يمكن أن يعدل عن مريم إلى أمها؟ كلا! . إنه لا يضمر ذلك قط، ولكن تصوروا كلباً قد عثر على عظمة وهو فى طريقه إلى المطبخ فهل يتعفف؟. "قصر ـ ١٤١"

وكان لا بد للعلاقة أن تنتهى، وأن تأتى النهاية أسرع مما تصور ياسين ومما تطيق الأم التى لا تقتنع بدفاعاته الوهمية التى تطفئ نيران شهوتها: لم لم تذكر هذه الاعتبارات يوم وقفت أمامى سائل اللعاب كالكلب؟. "نفسه ـ ١٤٨"

إن "كلبية" ياسين لا تخفى على المتعاملين معه، وتستغل زنوبة هذه الثنائية في مقولتها الساخرة عندما تراه بعد انقطاع طويل في شوارع المصادفات: إني أنصح من يروم لقاك أن ينقب في التربيعة عن أضخم امرأة. وأنا كفيلة بأنه سيجدك وراءها لابدا كما تلبد القراضة في الكلب. "نفسه ـ ٢٩٨"

"يهبط" ياسين من مرتبة الكلب إلى القراضة، ولكنه "هبوط" يحافظ على علاقته الحميمة وصلته الوثيقة بالكلب الذى لا يختلف عنه في شهواته الجامحة وانفلاته الدائم في علاقاته النسائية التي تشكل المفتاح الرئيس لشخصيته!.

ويختلف الارتباط عند المأزومين والمهمومين من أبطال نجيب محفوظ مثل عمر الحمزاوى وصابر الرحيمي وعيسى الدباغ.

يعيش عمر الحمزاوى في كابوس دائم من المطاردة، مطاردة وجودية عبثية تحيل حياته جحيماً لا يُطاق. وفي حلم كابوسي يقول له رفيقه القديم عثمان خليل مهدداً:

ـ سأطاردك بفرقة كاملة من الكلاب المدربة.

وقعقع أزيز الدراجة وارتفع نباح الكلاب فتنهدت في إعياء وفتحت عيني في الظلام.. "الشحاذ ـ ١٥٨"

وإذا كانت المطاردة وجودية رمزية كابوسية بالنسبة لعمر، فإنها واقعية حقيقية مادية في نصيحة كريمة لصابر الرحيمي قبل جريمة القتل المشتركة: احذر أن تترك أثراً، إن الكلاب تجري وراء الأثر!. "الطريق - ٩٤"

ليست كلاباً في الأحلام والأوهام، ولكنها كلاب الشرطة التي طاردت سعيد مهران من قبل!.

ولم تكن ثورة يوليو إلا زلزالاً أصاب الحياة السياسية في مصر وأعادت تشكيل القوى والأحزاب المختلفة. والوفدي عيسى الدباغ أحد المتضررين المبكرين الذين يحسون بالخطر قبل وقوعه، مثل الكلاب في إحساسها المبكر بالزلازل: ولكن أين تقف هذه الحركة؟! وما الدور الذي سيلعبه الحزب؟ الأمل أحياناً يسكره، وأحياناً يدوخه إحساس كالذي يخالج الكلاب قبيل الزلازل. "السمان - ٤٠"

وتتكرر الصورة نفسها بعد وقوع الخطر فعلياً ودفع الثمن فادحاً في ابتعاده الاختياري الإجباري: وأغمض عيسى عينيه ليرى الماضي. فترة حية من نبض القلب. هدير المجد يخلد في الأسماع. وهراوات الجنود كالصواريخ. والحماس المهلك للأنفس. ثم الإغراء الموهن للهمم. وزحف الفتور كالمرصد. ثم الزلزال دون نذير كلب.. "نفسه - ٦٦"

لقد وقع الزلزال وتحقق الدمار، ولم يفد النذير مما يستوجب نفيه خارج اللوحة كلها!.

●● لا تكتمل بعض اللوحات والتشكيلات التى يقدمها نجيب محفوظ بمعزل عن الإيقاع الصوتى الذى تمارسه الكلاب بنباحها!.

يبدو نباح الكلب بمثابة الإيقاع الفاصل بين الحوار والصمت فى جلسة الأصدقاء بقصر آل شداد: وعاودهم الصمت مرة أخرى. بدا المغيب يقطر سمرة هادئة، ولاحت فى الأفق حدأة مولية، وترامى إليهم نباح كلب. "قصر - ٣٨٢"

الصمت الهادئ الصافى يقطعه النباح. والمنظومة الصوتية الصاخبة فى الحارة يتخللها نباح مماثل لهدف إيقاعى مختلف: وترامى من الحارة صوت معركة تحتدم. شب وارتطام عصى. وتحطم زجاج، موقع أقدام جارية، وصوت امرأة، ثم نباح كلب. "أولاد - ١١٨"

وفى مخبأ سعيد مهران - عند العاهرة نور - يبدو نباح كلاب القرافة المجاورة للبيت ملازماً للصمت والوحدة: وفصل بينهما الصمت، ونبح فى مشارف القرافة كلب. "اللص - ١٢٢"

وينفرد سعيد بنفسه فلا يتسلل إلى وحدته إلا النباح: ومال نحو الكنبة فاستلقى عليها. وترامى إليه من بعيد نباح كلب. "نفسه - ١٥٢"

وإلى قرافة مماثلة للتى يجاورها سعيد مهران، يُطرد عاشور وأمه وأخوه فى "الحرافيش". ويغرق عاشور فى الصمت: فلم يُسمع إلا صوت تمطقه ونباح الكلاب عند مشارف القرافة. "الحرافيش - ٥٤٩"

ويستمر صمت عاشور بعد العشاء وتدخين الجوزة: ونباح الكلاب في اشتداد حتى انقلب في بعض خيوطه إلى عواء. "نفسه ـ ٥٥٠"

إن نباح الكلاب من نثريات الحياة اليومية وتعبير عن المشاركة الحيوانية في الحركات والأفعال الإنسانية: وركض نحو الباب، فمرق إلى الحارة. عدا بكل قواه. ورآه أطفال فتبعوه مهللين، فنبحت كلاب. "أولاد ـ ٤٢٥"

ليس هذا النباح إلا جزءاً من تشكيل الرعب الذى يواجهه أبو الخير بعد هروبه فى قصة "الجبار": وترامى نباح من أطراف الصمت الثقيل. "دنيا ـ ١٥٨"

وإذا كانت الشتيمة بالكلب شائعة فى عالم نجيب محفوظ كما سنشير فيما بعد، فإنها تتوقف عند حدود النباح أحياناً. يُشتم شمس الدين الناجي بأمه في إحدى معاركه، وخلا إلى شعلان الأعور وسأله عما يعنيه الشاتم، فقال له شعلان بحدة: نباح كلب جريح!. "الحرافيش ـ ١٠٦"

ليس العدو الغريم فى مجمله إلا كلباً، وليست شتائمه إلا نباحاً!.

وفى التشبيهات الكلبية أيضاً يظهر النباح.

تتعالى أصوات "تمر حنة" ونساء حمدان فى النوافذ والأبواب: كأنما انقلبت الحارة حنجرة كلب رمي بحجر. "أولاد ـ ١٠٧"

شتائم جادة وفكاهية

علاقة الامتداد والتداخل بين الإنسان والكلب فى الحياة اليومية نجدها فى انتشار الشتيمة بالكلب وابن الكلب فى عالم نجيب محفوظ، ومن اللافت للنظر تعدد وتنوع أهداف هذه الشتائم.

قد تكون الشتيمة عامة ومطلقة تتجاوز الأفراد إلى الجماعات.

يتوجه بها المدرس الشيخ إلى تلاميذه المشاغبين فى حصة الدين: الأدب يا أولاد الكلاب.. "حكايات ٤٦"

ويطلقها الأب على أعدائه الكثيرين فى قصة "الرجل الذى فقد ذاكرته مرتين": الكلاب يضيقون علينا الخناق. "حكاية - ٢٣٤"

ويقولها بكر للمحيطين به بعد محاولته الفاشلة لقتل أخيه خضر: جميعكم أوغاد وكلاب.. "الحرافيش - ١٨٧"

وتزدحم "أولاد حارتنا" بهذا النمط من الشتيمة الجماعية التى تنصب على رءوس ساكنى الحارة.

يقول ناظر الوقف لآل جبل: يا حارة حشاشين يا أولاد الكلب. "أولاد - ٢٠٨"

ويقول الفتوة بيومى عن الجميع: الواقف ميت أو فى حكم ذلك يا أولاد الكلب. "نفسه - ٣٢٣"

ويسخر الناظر المتغطرس من ساكني الحارة المطالبين بالعدل: العدل! يا كلاب يا أراذل.. "نفسه ـ ٣٨٠"

ولا تقتصر الشتائم على الأقوياء من النظار والفتوات. ساكنو الحارة أنفسهم يستخدمونها.

يغضب عم حجازى من الشتائم والأهازيج المنصبة من الصبيان والغلمان على رأس رفاعة. فيرد بالأسلوب نفسه: الكلاب أولاد الكلب. "نفسه ـ ٢٦٠"

ويبتعد عرفة عن القهوة فيقول معلقاً على ما تعرض له من سخرية واستهزاء: آه يا أولاد الكلب!. "نفسه ـ ٤٢١"

وعرفة أيضاً يقول لزوجه عواطف بعد إدراكه لاستحالة النجاة من مطارديه: الكلاب. ضاعت الفرصة يا عواطف. "نفسه ـ ٤٤٤ "

الشتائم السابقة تستخدم الكلب للحديث عن المجموع لا الفرد، وبذلك تنتفى الخصوصية ويكتسب السب طابعاً عاماً يستهدف التحقير والازدراء.

●● وقد تكون الشتيمة بالكلب خاصة يُقصد بها شخص بعينه فى سياق التعبير عن الغضب وتعمد الإهانة كرد فعل على موقف أو تصرف محدد.

المشتوم لا يكون بالضرورة معروفاً لشاتمه.

في قصة "هذا القرن" يقول الباشا لعشيق ابنته الذى يزعم أنه يحبها: لماذا لم تحب ابنة كلب من طبقتك. "همس - ١٤٧"

ويفكر أحمد عاكف فى الحادث القديم الذى غير حياة الأسرة وأثر علي مستقبله: حقاً إن أسرتنا ضحية الشيطان.. ألم يغر والدى بتحد لكلب حقير من الموظفين ففقد وظيفته؟!. "خان - ٣٧"

وبعد أن تنتهى المكالمة التى ينتظرها صابر الرحيمى بنكتة عبثية من متحدث مجهول، يسيطر عليه الغضب: أعاد السماعة وغادر الفندق.. انتفض طوال الوقت من الغضب.. عابث كلب وغد. "الطريق - ٥٤"

وفى قصة "يوم حافل" وعقب نزول كريم بك من الطوار مباشرة: وجد نفسه مدفوعاً نحو غلام يبول فتراجع بسرعة هاتفاً "يا ولد يا كلب". "بيت - ٢١٢"

المحبوبة الوهمية لعشيق ابنة الباشا، والموظف غريم عاكف أفندى، والمتحدث المجهول فى التليفون، والصبى المتشرد المتبول؛ جميعهم لا تربطهم علاقة شخصية أو معرفة مباشرة مع الباشا وأحمد عاكف وصابر الرحيمى وكريم بك، ولكنهم بأفعالهم التى تثير الغضب والحنق يستحقون السب ويوصفون بألكلب على سبيل الإهانة والتحقير والتنفيس.

وقد تكون العلاقة "موضوعية" تخلو من الجانب الشخصي وتقتصر المعرفة فيها على "الظروف" التي تستوجب الشتم.

في قصة "السطول والقتبلة" يُقبض على أيوب بتهمة الاعتداء على المأمور الذي يطعنه بنظرته ويقول بحنق:

ـ تضربني يا كلب!. "خمارة ـ ٢٠٤"

وفي المعتقل يتعرض إسماعيل الشيخ وهو يقضي حاجته لشتيمة السجان: أسرع يا بن الكلب. "الكرنك ـ ٢٥"

أما الشتيمة الشخصية لفرد بعينه تربطه بالشاتم علاقة شخصية فنجدها في عديد من أعمال نجيب محفوظ.

لا يروق للباشا الثمل في قصة "هذا القرن" ما يقوله سائقه ويوحي بأنه سكران، ولذلك ينتفخ غضباً ويصيح به:

ـ أنا شارب يا كلب!. "همس ـ ١٤٥"

وينفجر السيد أحمد عبد الجواد في زنوبة ويصيح غاضبا: اخرسي يا بنت الكلب، اخرسي يا دون... "قصر ـ ٣٣٢"

ويصيح ناظر الوقف في عثمان البواب شاتماً في غضب بعد دخول قاسم ـ الطفل إلى البيت في غفلة منه: يا عثمان يا ابن الكلب. "أولاد ـ ٣١٣"

وفى الرواية نفسها يقول الفتوة لهيطة عن راعى الغنم الذى انضم بأغنامه إلى قاسم: الكلب.. حارة كلاب.. "نفسه - ٣٥٢"

ويقول كرم يونس لزوجه تحية الكبش: ليس عندك ملابس صالحة.. صادروا نقودنا.. ضربنى المخبر الكلب. "أفراح - ٤٤"

أما سليمان الزينى فيصرخ فى كبير الشرطة بعد اكتشاف مؤامرته ضده وضد جاريته: أيها الكلب الخائن. "ليالى - ١٨٠"

وربما تكون الشتيمة بالكلب مقدمة للشجار والعراك كما يحدث بين سرحان البحيرى وحسنى علام. يقول سرحان لزميله فى البنسيون:

- على أى حال فقد خلا سلوكك من شهامة الرجال..

تحولت إليه بغضب صائحاً:

- اخرس يا ابن الكلب!

وسرعان ما تبادلنا الضربات. "ميرامار - ١٣٠"

الباشا وأحمد عبد الجواد وناظر الوقف والفتوة وكرم يونس وسليمان الزينى وحسنى علام، شاتمون غاضبون جادون فى سبهم لأشخاص على صلة وثيقة بهم: السائق الذى يتجاوز حدوده، والعشيقة التى تغالى فى مطالبها. والبواب المهمل. والراعى السارق، والمخبر المؤذى. وكبير الشرطة الخائن. وزميل السكن فى البنسيون البادئ بالإساءة.

فى كلمة "الكلب" من القسوة والاتهام ما يعبر عن الغضب والسخط، وفيها أيضاً ما قد يؤدى إلى الانتقال من العراك "الكلامى" إلى الصراع "المادى" عندما تتساوى القوتان!.

** وقد تكون الشتيمة بالكلب نوعاً من التنفيس الذى يعبر عن الضيق لغياب السبب المباشر الذى يستدعى الغضب الحقيقى. الشتيمة فى هذه الحالة ليست جادة، ولكنها "تنفيس" عفوى عن الغضب الطارئ وليد الانفعال المؤقت.

تمتنع بهية عن الاستجابة لما يتصور حسنين أنه من "حقوقه" بعد الخطبة، وليس هذا الامتناع إلا استجابة لنصائح الأم الأخلاقية. ولا يجد الشاب المحروم إلا هذه الأم "الناصحة" لتتلقى لعناته ومحصول كبته: بنت الكلب!.. أهى التى قالت لك هذا؟.. فتاتى عنيدة مجنونة.. السبب أمها بنت الكلب "حمالة الحطب". "بداية - ١٠٨"

وتتسع الدائرة عند حسن، الشقيق الأكبر لحسنين.

ففى سياق دفاعه الحار عن فكرة قبول أسرته لهدايا أسرة فريد أفندى، يقول مدللاً على رأيه: كانت هدايا أحمد بك يسرى تُحمل إلينا فى المواسم، على فكرة ما باله نسينا هذا العام ابن الكلب؟!. "نفسه - ١١٣"

إذا كان الأب لم يجد حرجاً فى قبول هدايا صديقه، فلماذا لا تقبل الأسرة بعد

موته هدايا الجيران؟!. و"بالمناسبة"، لماذا تخلى الصديق "ابن الكلب" عن عادته؟.

حسن لا يستهدف الإهانة، وهو لا يقصدها كذلك عندما يستيقظ "مبكراً" على طرقات تدق بابه. لا يعرف أن الطارق أخوه، فيصرخ مجيباً على الفور: من ابن الكلب الذى يطرق الباب فى هذه الساعة المبكرة؟!. "نفسه - ١٨٧"

وتتسع دائرة التنفيس أكثر عند ياسين عبد الجواد.

أشواقه الجنسية تشتعل وهو يراقب زنوبة معانياً من طول الحرمان: آه لو كنت على باب البيت.. أو حتى فى دكان محمد الطرابيشى.. انظر إلى ابن الكلب كيف يحملق فى الطابية بعينيه. "بين - ٧٠"

وبعد محاولته الفاشلة للاعتداء على أم حنفى وصراخها المزعج. يفكر ياسين: ما العمل فى بنت الكلب هذه!. "نفسه - ٢٢٦"

ولا ينجو زوج المرحومة أمه من الغضب الذى يستحق التنفيس. فإذ تقول خديجة معلقة على ميراثه:

- وما خفى من الحلى والنقود المخبأة أعظم..

يهتف ياسين في أسف صادق:

- اختفت كلها وحياتك، سُرقت، سرقها ابن الكلب. "نفسه - ٤٣٥"

وينال ياسين نصيبه من غضب الآخرين الذين ينفسون بالشتائم أيضاً!.

تصفه زنوبة فى اللقاء الأخير بينهما قبل زواجه بأنه ابن كلب!.
"نفسه ـ ٢٨٥"

وتودعه أم مريم فى لقائهما الأخير قبل زواجه من ابنتها بصفعة على "قفاه" مصحوبة بشتيمة مناسبة: ألا يحق لى أن أشفى غليلى ولو بصفعة يا ابن الكلب؟. "قصر ـ ١٤٩"

أما أحمد عنبة فيشفى غليله من مانولى بعد فشله فى سرقة الحانة الخالية من النقود: يا مانولى الكلب. أتأخذ الايراد معك؟. "خمارة ـ ٦٩"

وبعد انتحار فائز الناجى وتكشف حقيقة ثروته، تتبدل حياة أسرته التى تلجأ إلى المدافن، ويصيح ضياء منفساً عن مشاعره ومتوجهاً بخطابه إلى أعداء بلا عدد:

ـ الكلاب!. "الحرافيش ـ ٥٤٤"

أم بهية وأحمد بك يسرى والطارق المجهول بالنسبة لحسن ومحمد الطرابيشى وأم حنفى وزوج أم ياسين وياسين ومانولى والأعداء الشامتون المتوهمون، كلهم لا تنطبق عليهم سمات الأعداء الحقيقيين من منظور حسنين وحسن وياسين وزنوبة وأم مريم وأحمد عنبة وضياء الناجى. ولكنهم يتعرضون للسب فى لحظة غضب نتيجة فعل لا علاقة مباشرة له بالشاتم الذى

يدفع "ثمن" الفعل العفوى!.

وقد تكون الشتيمة سياسية تمزج بين الغضب والتنفيس والموقف!.

يبدأ الأمر مع ثورة ١٩١٩ التي يتعرض أحمد عبد الجواد وغنيم حميدو بسببها لعقاب إنجليزى رادع ومفاجئ. ولا يملك غنيم إلا أن يدعو على الجنود الانجليز:

- حسبنا الله ونعم الوكيل على أولاد الكلب. "بين - ٤٢٧"

وفى أعقاب الحادث تدعو عائشة على من تسببوا فى أذى أبيها وتلعنهم:

- لعنة الله على الكلاب أولاد الكلب!. "نفسه - ٤٣٣"

وإذا كانت لعنات غنيم وعائشة أقرب إلى الموقف الشخصى منها إلى الموقف السياسى، فإن نهاية الثورة لا تنهى الشتائم الموجهة إلى الإنجليز الذين لا يكفون عن التدخل فى الشئون الداخلية لمصر ومنهم الوزير "هور" صاحب التصريح المشهور الذى أغضب الشعب وتعرض بسببه للشتائم: ابن الكلب قال: نصحنا بأن لا يُعاد دستور ١٩٢٣ ولا دستور ١٩٣٠، ما شأنه هو ودستورنا؟. "السكرية - ٣٩"

وليس الإنجليز وحدهم من يستحقون الغضب الشعبى والشتائم، فزعماء الأقليات ورموز الديكتاتورية يستحقون أيضا.

محمد عفت يقول: أنا لا أثق فى هؤلاء الكلاب. "قصر ـ ٣٥٨"

وفى قصة "العالم الآخر" يقول الشاب الذى يعمل فى درب الدعارة لصديقه السياسى المثالى الداعى إلى الإضراب: ... وكل عام أو عامين يتصدى لك دكتاتور كالكلب الأرمنت يلتهم لحمك ويهشم عظامك. "شهر ـ٤٢"

ولا يتورع المثقفون من أمثال كمال عبد الجواد عن استخدام الأسلوب نفسه، ذلك أنه أسلوب شعبى وطنى عام يتجاوز الثقافة ولغتها المهذبة المحسوبة: تلك السلسلة المشئومة من الطغاة التى تمتد إلى ما قبل التاريخ. كل ابن كلب غرته قوته يزعم لنا أنه الوصى المختار وأن الشعب قاصر. "السكرية ـ ٤٥"

ويقول معلقا على تزوير الانتخابات وتزييف الإرادة الشعبية: ولكن الكلاب يعيدونها إلى الحكم المطلق. "نفسه ـ ١٨٤"

ولا يختلف تعامل الشباب مع هزيمة ١٩٦٧ عن أسلوب آبائهم وأجدادهم فى التعامل مع الإنجليز ورموز الأقليات والدكتاتورية. ثمة حوار مهم يعبر عن الضيق والتمرد يدور بين مجموعة من الشباب المأزوم المتسكع المرور بعد الهزيمة:

ـ كانت أياما مجيدة.

ـ كانت حلما.

ـ بل كانت وهما.

ـ ويضيقون بوقوفنا دقائق فى الناصية!

ـ الكلاب. "الحب تحت ـ ٣٩"

من الكلاب؟!. لا أحد على وجه التحديد، وجميع المسئولين عن الهزيمة القاسية فى الوقت نفسه!.

●● وتكتسب الشتائم الكلبية الموجهة إلى المرأة خصوصية تليق بجنسها، فهى "كلبة" لا "كلب". قد تشتم المرأة موصوفة بأنها "بنت كلب". ولكنها "كلبة" عندما يتعلق الأمر بها شخصيا!.

كيف يفكر حسنين كامل "الفقير" فى ابنة أحمد بك يسرى "الثرية"؟!.: ألست تنامين كأى فتاة. وتغيبين عن الوجود كأى امرأة، وتحبلين كما تحبل الخادمة التى طردناها لفقرنا، وتعوين حين المخاض كأية كلبة!. "بداية ـ ٢٧٤"

إنه مزيج من الحقد الطبقى والرغبة فى الإذلال والتحقير كنتيجة منطقية لهذا الحقد. وكأن المساواة المنشودة لن تتحقق بالمقارنة مع أى امرأة أو فتاة، فلابد من المقارنة مع الكلبة أيضا!.

وقد يتخذ الأمر طابع الشتيمة المباشرة كما نجد فى قصة "صورة" حيث تستيقظ فتحية السلطانى من نومها فتنهال شتائمها على درية ـ شلبية غير الموجودة كبقايا لمعركة الأمس: الخنزيرة.. الكلبة.. ماذا تظن بنفسها!. "خمارة ـ ٢٢٠"

امرأة تشتم امرأة، والجمع بين "الخنزيرة" و"الكلبة" مما يوحى بمعنى جنسى مبتذل يفيد السقوط والانحلال، وهو ما يتوافق مع طبيعة الشاتمة والمشتومة معا!.

ولا يتورع بعض الأزواج عن شتم زوجاتهم.

فى قصة "سوق الكانتو" تترامى إلى حسونة دمدمة عراك عنيف بين شنكل وزوجه:

- يامجنون.. يا وحش..

- تعضيننى يا كلبة.. "بيت - ١٢٣"

ربما كان الدافع هو مشترك "العض" الذى تمارسه الزوجة على الرغم من أنه فعل مقترن بالكلاب!. وتتكرر العضة النسائية فى قصة "تحت السمع والبصر" إذ تنطلق من حنجرة الزوج صرخة كالعواء:

- تعضيننى يا كلبة.. سأقتلك. "التنظيم - ١٩٧"

العضة أولا - فى القصتين - ثم الشتيمة التى تنطلق وكأنها رد فعل تلقائى مباشر على الفعل الكلبى الذى تمارسه الزوجة!.

أما كرم يونس فتتخذ شتيمته لزوجه تحية الكبش مسارا مختلفا عندما يقول لنفسه: الحقيقة تتجلى فى نظرتك الكلبية!. :أفراح - ٧٨"

نظرات كلبية، واتهامات جنسية، وتاريخ لا يغيب عن الذاكرة!.

●● هل أدل على مكانة الكلب فى عالم الإنسان وشتائمه من تحوله إلى أداة سب مسعفة عند الحديث عن "العادات" و"المتاعب" و"الأمراض" و"المشاكل" و"الأماكن" التى لا تروق للشاتم؟!.

يقول عباس الحلو لصديقه حسين كرشة متظاهرا بالإحجام والإباء، وهو فى الحقيقة يبغى أن يفسح لنفسه وقتا للتدبر والتفكير:

- السفر ابن كلب!

فضرب حسين الأرض بقدمه وصاح به:

- أنت ابن ستين كلبا. السفر خير من زقاق المدق. وخير من عم كامل. "زقاق - ٣٦"

ما يقوله حسين قد يعبر عن الألفة ورفع الكلفة بين الأصدقاء، أما ما يقوله عباس فترجمة فورية تعبر عن خوفه من السفر وضيقه من الغربة!.

ويعدد إسماعيل لطيف مزايا وعيوب الأنواع المختلفة من الخمور. ويتوقف عند النبيذ: غير أن عاقبته لطسة بنت كلب. "قصر - ٣٨٥"

التأثير الشديد المتعب للنبيذ يتحول إلى "لطسة" بنت كلب!.

وفى الرواية نفسها تسأل العالمة جليلة عن أعراض الضغط، ويجيب أحمد عبد الجواد: صداع ابن كلب، وتعب فى التنفس عند المشى. "نفسه - ٤٣٥"

وللخيال أن يحلق كيفما شاء ليتصور نوعية الصداع وما يسببه من تعب!.

أما ياسين عبد الجواد فيقول متفلسفا: جانب من الزواج خدعة بنت كلب، ولكن قوته فى أنك تحتضن الخدعة ما حييت. "السكرية - ٦٧"

خدعة "بنت كلب"، وتلخيص للكثير من المتاعب والنكد والمشاجرات والقرف!.

ولأن البواب عثمان يتعرض للشتيمة من ناظر الوقف بسبب قاسم الذى تسلل إلى البيت، فإنه يستخلص نتيجة قاسية: أولاد عفاريت. وحارة بنت كلب!. "أولاد - ٣١٥"

السفر وعاقبة النبيذ ومتاعب الصداع ونكد الحياة الزوجية وقبح الحارة، وكلمة واحدة مألوفة متداولة تكشف وتكثف طبقات من المعانى!.

●● لم يبق إلا أن تتجه الشتيمة بالكلب إلى الذات. ليس من خلال شتيمة الأبناء مثلا، ولكن بالمعنى المباشر!.

يقول المعلم كرشة عن نفسه بعد الشجار الدامى بين "زوجه" و"عشيقه" الذى فر مذعورا: أنا مجرم، أنا ابن كلب. أنا وحش. "زقاق - ١٠٠"

وفى قصة "سوق الكانتو" يجلس حسونة القرفصاء ويوبخ نفسه: ضيعت ثروة يا حسونة الكلب. "بيت - ١٢٤"

أما دعبس فيقول متشكيا فى فخر أو مفاخرا فى شكوى: نحن أسياد هذه الحارة ولكننا نضرب فيها كالكلاب. "أولاد - ١٥٦"

كرشة يصف نفسه بأنه ابن كلب وهو يغلى فى ظل سيطرة مزاج سوداوى ينبئ عن غضبه، وحسونة ينعى حظه ويبكى على غفلته ويعاقب نفسه، ودعبس يتحسر ويجلد ذاته وذوات قوامه، أما العباهرة نور فتخاف من الزمن الذى قد يصل بها إلى مرحلة من الانهيار لا تشتهيها فيها الكلاب كما يتجلى فى قولها لسعيد مهران: لى صديقة أكبر منى بأعوام وتعيد القول أننا نصير عظاما أو أسوأ من ذلك فحتى الكلاب تعافنا. "اللص - ١٢٣"

●● أليس منطقيا أن يكون شاتمو أنفسهم أقدر على شتيمة الأقارب والأصدقاء والأبناء فى مزيج من القسوة والمودة، وتعبيرا عن الغضب والسخط؟!.

زوجة المعلم كرشة تستدعيه على عجل للحيلولة دون رحيل ابنه، فلا يملك إلا أن يضرب كفا بكف ويقول محنقا: أو من أجل هذا أترك عملى يا هوه!.. أمن أجل هذا أصعد مائة درجة؟ آه يا أولاد الكلب. "زقاق - ١١٠"

وهو يقول لابنه ساخرا: تريد حياة أخرى تناسب المقام! لأن كلبا مثلك نشأ محروما جائعا. يجن إذا امتلأ جيبه.

وكظم الابن غيظه وقال: لم أكن كلبا جائعا قط، لأنى نشأت فى بيتك. "نفسه - ١١٠"

وتستمر "لازمة" الكلب عند المعلم كرشة فى قوله معلقا على رغبة ابنه فى الزواج من "بنت ناس": ولماذا لا تتزوج بنت كلب كما فعل أبوك؟!. "نفسه - ١١٣"

كرشة وزوجه وابنه كلاب أولاد كلاب من منظور الشاتم نفسه!. ومن الواضح أن الأمر لا يتجاوز الرغبة فى إظهار الغضب والسخط، ولا حرج على الحانقين أن يسبوا أنفسهم وأقرب الناس إليهم.

وفى الراوية نفسها تقول أم حميدة لابنتها بالتبنى بعد مشروع الخطوبة الذى لم يكتمل للسيد سليم علوان: عروس كبير المقام. يتمنع عن الأحلام يا بنت الكلب. "نفسه - ١٣٧"

إنه التعبير عن الفرح أيضا وليس عن الغضب وحدة، الفرح الذى يتجاوز حدود الخيال ويفوق الأحلام ولا تصلح له اللغة العادية المألوفة!.

وتبدو الشتيمة بالكلب جادة ومجسدة للغضب الحقيقى الذى يستشعره عاشور الناجى تجاه أولاده السكارى" سكارى؟!.. يا كلاب .. "الحرافيش - ٣٢"

الأب يشتم أولاده، والأخ إدريس يشتم أخاه أدهم وهو يترنح من السكر: أخرس يا كلب يا ابن الكلب، لا أنت أخى ولا أبوك أبى. "أولاد - ٤٨"

بل إن الأبناء يشتمون آباءهم فى مزيج من السخرية والمرارة كما فى

حالة عدلى بركات الذى يستغرق فى الضحك ويقول لصديقه الراوى: تصور أن أموت أنا قبل "الكلب"؟. "المرايا - ٢٨٢"

والكلب المقصود هو الأب المنتظر موته على أحر من الجمر!.

الغالبية العظمى من هذه الشتائم "العائلية" لا تعنى إلا البديل اللغوى لألفاظ أخرى لا يستوعبها الشاتم الغاضب فى لحظات انفعاله المعقدة. وهى قد تعنى أيضا وجود "لازمة" مصاحبة للشخصية كما يتضح عند المعلم كرشة. وهو ما يتجلى بوضوح أكثر عند السيد أحمد عبد الجواد.

ما أكثر الشتائم بالكلب فى أسرة السيد. ورب الأسرة هو الفارس الذى لا يكاد يستثنى أحدا من قذائفه الكلبية التى ترتد إليه غالبا!.

يحظى كمال - الطفل بنصيبه، فالأب يسأل فهمى قائلا: "أيذاكر ابن الكلب دروسه أم لا؟". ويعرف فهمى بالبداهة من يعنى لأن "ابن الكلب" عند السيد كناية عن كمال. "بين - ٢١"

ولا تشفع شهادة فهمى الإيجابية لأخيه، فالأب يعلق بامتعاض: "الأدب مفضل عن العلم". ثم يلتفت إلى كمال ويستطرد بحدة: "سامع يا ابن الكلب!". "نفسه - ٢٢"

وإذ كان تفوق كمال الدراسى لا يفيده بشئ. فإن براعته فى الغناء - التى تسر الأب فى أعماقه - لا تفيده أيضا!. فإذ ينكر كمال تأدبا - فى مجلس

أصدقاء أبيه ـ حبه للغناء، يعلق أحمد عبد الجواد ضاحكا بعد انصرافه: هل رأيتم أمكر من ابن الكلب يدعي التقوى أمامي ؟."نفسه ٢٤٤ "

ويأتي الدور على ياسين الذى يندهش كثيرا بعد معرفته لجوانب من تاريخ أبيه السرى وولعه بالشراب والغناء، ومرد الدهشة إلى الصورة النمطية التي يحفظها لأبيه القاسي: غنوتك الوحيدة المشهورة بيننا "ياولد يا ثور- يا ابن الكلب". "نفسه ٢٤٠"

ويحصل ياسين على نصيبه من هذا "الغناء" الأبوى، فبعد مغامرته الفاشلة مع أم حنفي يزمجر أبوه صائحا: أطلع يا مجرم يا بن الكلب. "نفسه ٢٦٦"

ولا ينجو فهمي ـ أوفر اخوته أدبا وأكثرهم احتراما ـ من شتائم أبيه لأسباب سياسية تتعلق باشتراكه في ثورة ١٩١٩، وهو ما يثير غضب وخوف الأب. لقد "انكشف" فهمي في الأزهر عندما دعي بـ "المجاهد"، ولا يفلح المجاهد الثائر في خداع أبيه بعد امتناعه عن القسم بالتوقف عن النشاط الثورى. عندها تبدأ قذائف الأب الصاروخية: أنت تكذب على يا بن الكلب!.. أنت حشرة خبيثة مجرمة، بنت كلب خدعت بظاهرها طويلا.. حيرتموني يا أولاد الكلب وجعلتموني أضحوكة الناس، أنا أسلمك بنفسي إلى البوليس، فاهم ؟.. بنفسي يا بن الكلب.. "نفسه ٤٠٣، ٤٠٤ "

من الواضح أن الشتيمة لا تتجاوز رغبة التنفيس عند الغضب

والفكاهة عند الرضا، فهى "لازمة" من لوازم أحمد عبد الجواد يلجأ إليها حتى فى حواره مع نفسه بعد نهاية الثورة ونجاة فهمى من مخاطرها: سأقول من الآن فصاعدا إنه خاض غمار الثورة، لقد رمي ابن الكلب بنفسه فى التيار الدامى. "نفسه - ٤٦٨"

وفى حوار داخلى آخر تتكرر الشتيمة لتطول عموم الأسرة: يا أولاد الكلب!. الله يقطع الأولاد والخلف والبيوت. "نفسه - ٣٩٨"

يتكفل الزمن بتغيير أحمد عبد الجواد. وتتطور علاقة كمال بأبيه حتى يسأله فيجيب بدلا من أن يصيح به: "اخرس يا ابن الكلب". "قصر - ٢٥"

لم يعد أحمد هو السيد القديم القاسى فى إفراط، وتغيرت تبعا لذلك أساليبه ولوازمه اللغوية. ولكنه يعود أحيانا - وهو مضطر ومعذور - إلى ما انقطع عنه. فإذ يتردد ياسين قبل أن يقول معلقا على رغبة أبيه فى تطليق زنوبة:

- حرام على أن أطلقها بلا ذنب.

يفكر أحمد على الفور: يا ابن الكلب!. أتحفتنى بنكتة بارعة لسهرة الليلة. "نفسه ٣٦٥"

إنه التعبير التلقائى الوحيد الذى يقفز الى ذهن الأب كرد فعل على المفارقة الصارخة فى دفاع ياسين الهزلى عن زوجته التى لم ترتكب ذنبا

يستوجب تطليقها، فكأن حياتها كلها ليست ذنبا طويلا متصلا!.

يهمس الأب لنفسه بالصفة الوحيدة التى تنفس عن مشاعره الغاضبة السافرة، ولكنه لا يستطيع الكتمان وناظر مدرسة ياسين يحدثه عن فضائح ابنه التى استوجبت عقابه بالنقل، فهو يتنهد متمتما:

- الكلب..! "نفسه - ٤٢١"

كلمة واحدة مختصرة ظاهرها "الهجوم" على الابن ومخازيه. وباطنها "الدفاع" عن النفس وتأكيد الجهل بالوقائع الفاضحة التى تستوجب اللعنة!.

لقد توقف أحمد عبد الجواد عن استخدام مفردات قاموسه القديم، ولكن ياسين يجبره على العودة إلى الماضى وألفاظه وشتائمه!.

ياسين نفسه لا يتورع عن اللجوء إلى "الكلب" فى وصف زوجه الأولى زينب بعد مغادرتها بيت الزوجية احتجاجا على فضيحته مع الجارية نور: بنت الكلب!.. لشد ما كان مصمما على أن يستدرجها إلى الاعتراف بأنها أخطأت خطأ أكبر من خطئه.. ولكنها ذهبت.. قلبت خططه رأسا على عقب.. وضعته فى مأزق غير يسير.. بنت الكلب!. "بين - ٣٧٦"

ويطول هجر الزوجة لبيتها، ويستمر ياسين فى تداعياته الغاضبة: عما قليل تلد بنت الكلب.. "نفسه - ٤٥٢"

لا جدية حقيقية فى هذا النمط من الشتائم، وتنقلب "اللاجديـة" إلى فكاهة خالصة فى مواضع أخرى.

●● لا كلفة بين الأصدقاء ولا حرج، وليـس اسـتخدامهم للمفـردات الشائعة إلا دليلا على الألفة والمودة دون تفكير فى الإساءة والتكدير.

فى اللقاء الأول بين ياسين وزنوبة بعد انقطاع طويل، تقول زنوبة:

- كدت أصيح بك: يا بن الكلب..

ويرد ياسين وهو يضحك ضحكة ريانة:

- ولم لم تفعلى يا بنت القارحة؟

- أصلى لا أشتم إلا الأحباء! وكنت وقتها غريبا أو كالغريب..

- والآن ماذا ترينني؟

- ابن ستين ..

- يا سلام. الشتيمة تسكر أكثر من الخمر أحيانا.. "قصر- ٣٠٠"

الأحباء وحدهم يتشاتمون بلا حرج، ومن هـذا التشـاتم يتولـد المـرح والفكاهة وتعمر الجلسات بالضحك والمودة. وأحمـد عبـد الجـواد فـى جلسـاته الكثيرة مع خلصائه من أصدقـاء العمـر يقـدم نموذجـا فريـدا لهـذا النمط مـن استثمار لفظة "الكلب" فى الفكاهة التى لا تجرح ولا تحرج.

يلقى خبر نفى سعد زغلول بظلاله الكئيبة على جلسة الأصدقاء الذين يرغبون فى الشراب مثل كل ليلة ولكنهم يعانون من الحرج. وكان لابد أن "يقترح" أحدهم وأن "يحتج" الآخر:

ـ نشرب فى مثل هذا اليوم؟!

فحدجه السيد أحمد بنظرة ذات معنى. ثم قال متهكما:

ـ دعهم يشربون وحدهم وهلم بنا إلى الخارج يابن.. الكلب.. "بين ـ ٣٣٤"

بعدها تنتهى المشكلة ويزول الحرج ويبدأ الشراب الذى يرغبه الجميع فى أعماقهم. بقدر ما يزهدون فيه ظاهريا!

ولقد توقف أحمد عبد الجواد عن معاشرة النساء وشهود مجالسهن بعد استشهاد فهمى. ولكنه يعود إلى السهرات تدريجيا حتى يقرر الذهاب إلى العوامة وهو يقول كالمتردد:

ـ لا يعنى هذا أننى سأغير سلوكى أو أحيد عن خطتى..

ثم بعد لحظة سكوت:

ـ قد...وقد..

ـ تصور كلبا يعد بألا يقرب اللحم إذا ترك فى المطبخ!

ـ الكلب الحقيقى كان أبوك يابن الكلب.. "قصر ـ ٨٦"

بالتشبيه الساخر والرد العفوى، تنفجر الضحكات ويزول الحرج أيضا!.

وعندما يشتد السكر بأصدقاء العمر؛ يتحسر إبراهيم الفار على العصر الذهبى للنحاس على أيام الحرب، ويقول لهم بلسان ثقيل "كنتم تقبلون يدى من أجل رطل نحاس".

فقال له السيد أحمد: إن كان لك عند الكلب حاجة قل له يا سيدى.

"نفسه ـ ٩٦"

ينتفى الحرج بين الأصدقاء السكارى. فيحق للفار أن يشكو متحسرا ويحق لأحمد عبد الجواد أن يرد ساخرا بطريقته التى تمليها الصداقة والنشوة معا!.

ويتخذ الأمر طابعا أكثر عمومية فى سياق الحديث عن "نظرية التطور" التى يبشر بها كمال عبد الجواد. وتتحول النظرية إلى طرفة من طرائف المجلس!. يقول إبراهيم الفار:

ـ سيكبر يوما فيخرج عن محيط أسرته. ويقتنع بأن البشر من آدم وحواء..

فبادره أحمد عبد الجواد:

ـ أو أحضره معى يوما إلى هنا ليقتنع بأن الإنسان أصله كلب..

"نفسه ـ ٤٣٧"

قد يتبوب الأصدقاء عن الخمر، ولكنهم لا يكفون عن الضحك والشتائم الأليفة المعبرة عن الامتزاج الكامل والمودة الصافية. إن حديثهم عن الخمر مشبع بالحزن والحسرة، ولا يخلو أحمد عبد الجواد من هذه المشاعر ولكنه يقول ضاحكا: إذا ندمتم فاندموا على الشر لا على الخير يا أولاد الكلب!. "السكرية - ٤٩"

لا نشاز فى ألفة أبناء الجيل الواحد من أصدقاء العمر، ولكن "رفع التكليف" يبدو مرادفا للشذوذ فى شلة أخرى بطلها عبد الرحيم باشا عيسى الذى يظهر إعجابه برضوان ياسين ويرغب فى لقائه. وعندما يسأله الصديق المشترك حلمى عزت "وله يا باشا؟" ينفجر قائلا كالغاضب - هكذا تبلغ به خفة الروح أحيانا: - لأعطيه درسا فى الديانة يا بن الكلب. "نفسه - ٧٩"

هكذا يحكي حلمى لرضوان معتبرا أن شتيمة الباشا له هى "قمة التعبير" عن "خفة الروح"!!.

وقبل أن يبدأ الباشا رحلة الحج!، يجتمع مع أصدقائه الشباب مستمرا فى ممارسة "خفة الروح" التى تجعله يقول لمهران: يا بن الكلب لا تفسد الجو بهذرك! "نفسه - ٣٥٩"

ويتحدث عن "محاسن" صديق قديم له فيصفه مشيرا إلى مهران: ورشاقة هذا الكلب فى أعز أيامه!. "نفسه - ٣٦٠"

ولا تتسع رواية "ميرامار" لحديث طويل عن الأصدقاء القدامى لعامر

وجدى، ولكن الكلفة تبدو مرفوعة بينه وبينهم كما يتضح من ذكرياته عن علاقته بالزعيم سعد زغلول:

كان يحبنى ويتابع مقالاتى باهتمام صادق. ومرة قال لى:

ـ أنت كلب الأمة الخافق..

كان رحمه الله ينطق القاف كافا. وسمع بها بعض الزملاء القدامى من رجال الحزب الوطنى فكانوا كلما رأونى صاح صائحهم: أهلا بكلب الأمة. "ميرامار ـ ١٣"

لا غضب فى الذكرى التى تستدعى زمانا جميلا بفكاهاته وصداقاته!.

ولكن الأمر يختلف عندما تنتفى الندية وتختفى الصداقة. فتظهر الفكاهة من المفارقة الخارجية وليس من الحميمية الداخلية.

باشكاتب المدرسة يشكو للموظف الجديد حسين كامل ويعرفه بنفسه: اسمى حسان حسان حسان. العادة فى أسرتنا أن يتسمى الابن الأكبر باسم أبيه. ألم تسمع بأسرة حسان بالبحيرة..؟ كلا؟!.. كلا كلا يا سيدى. الله الغنى. التلاميذ الكلاب يدعوننى بحسان أس٣. "بداية ـ ٢٠٥"

الباشكاتب الطيب لا يقصد الفكاهة ولكنه يفجرها بتلقائية. وليس وصفه للتلاميذ بالكلاب إلا استكمالا للوحة الساخرة التى يقدمها!.

و يقول عباس فوزى بعد سخرية عدلى المؤذن من مؤلفاته: بدأت الفلسفة بابن رشد وانتهت بابن الكلب!. "المرايا ـ ٢٤٢"

إنه الرد الساخر العنيف المغلف بروح الفكاهة على الاتهام المرير القاسى الذى يقال فى جدية وخشونة وفظاظة!.

عدلى المؤذن ابن كلب عند عباس. والمستقبل مضمون لأولاد الكلب عند الشربينى فى قصة "رحلة". فهو يقول ساخرا عندما يسأله صديق الطفولة عن مستقبل أولاده: لا خوف عليهم ما دام أولاد الكلب يرتفعون إلى أعلى المناصب. "خمارة ـ ١٩٥"

وتظهر الفكاهة "الكلبية" فى الحوار بين محجوب عبد الدايم والسكير المجهول:

ـ الحنبلى ينتقض وضوءه خيال الكلب. "القاهرة ـ ١٤٦"

تداعيات بلا رابط، وفكاهة لا تخلو من المرارة، والأمر كله يدور فى إطار لا يسمح بالجدية. ذلك أن ظهور الجدية يفسد العبث البرئ والفكاهة المصنوعة ويبدو كمشروع شجار فى قصة "الطابور": وما يدرى تكوين من تكوينات الطابور الرباعية إلا ورشاش سائل يبلله فى مواضع متفرقة من أجسام أصحابه.

ويتبين لهم من رائحته أنه بول!.

وانفجر صوت خشن بلا مبالاة:

ـ عليكم اللعنة..

وتساءل القائد:

ـ من الوقح؟!

فصاح الآخر متحديا:

ـ كلب بال علينا. "الجريمة ـ ١١١، ١١٢"

ربما يكون الدافع رغبة فى المعابثة والسخرية، ولكن الأمر ينقلب جدا مؤذيا مأساويا. بين الأصدقاء وحدهم يتحقق المرح بلا حرج، وعند الغرباء يسيطر الموقف الكوميدى فلا يستدعى الأمر غضبا أو شجارا. ولكنه يتحول إلى كارثة عندما تغيب الصداقة وتتعرض الرسالة الفكاهية لتشويش يذبل بهجتها ولا يبقى إلا مآسيها!.

الكلب وبناء الحدث الروائى

نتناول دور الكلب فى بناء الحدث الروائى عند نجيب محفوظ من خلال ثلاثة أعمال:

- خان الخليلى.
- عبث الأقدار.
- اللص والكلاب.

●● موت رشدى عاكف هو ذروة الحدث الروائى فى "خان الخليلى"، ولا يكتمل الإحساس بهذا الموت دون وعى بالاستثمار الفنى لجثة الكلب الميت فى تجسيد مشاعر أحمد عاكف بعد موت أخيه.

كان أحمد فى الليلة التى مات فيها رشدى منقبض الصدر متوتر الأعصاب: وترامت إلى أنفه رائحة نتنة فازداد صدره انقباضاً وأعصابه توتراً. ترى هل للهواجس التى تضطرب بها أعماق النفس رائحة تُشم؟! "خان - ٢٤١"

الروائح الداخلية القلقة مصدرها مرض رشدى المهلك. فمن أين تنبع الرائحة الخارجية؟.

لا يبحث أحمد عن المصدر قانعاً بما يستشعره فى داخله من ضيق وما يحس به من خوف. كأن الرائحة الخارجية مجهولة المصدر نذير برائحة الفقد الإنسانى الذى يسيطر على جو المنزل.

تتحقق المخاوف ويموت رشدى: ولما آوى عند منتصف الليل إلى حجرته: انثالت عليه الفكر. حتى تنبه إلى شئ فى الجو. يا عجباً ما زالت الرائحة الكريهة تزكم أنفه.. رائحة الموت المخيفة؟. وفى صباح اليوم الثانى وجد أنها ما تزال تنبعث فى الجو، فتهيأ له أنها ربما كانت متصاعدة من الممر المفضى إلى خان الخليلى القديم. ففتح النافذة ونظر منها. فرأى على الطوار كلباً ميتاً وقد انتفخ بطنه وتشنجت أطرافه، فصار كالقربة: وأكب

عليه الذباب. وأدام النظر قليلاً، ثم تحول عن النافذة بفؤاد مكلوم وقد امتلأت عيناه بالدموع. "نفسه ـ ٢٤٤"

موت الكلب سابق لموت رشدى، ولكن الرائحة تهيج الحزن لأنها تنبئ عن المصير الإنسانى الذى لن يختلف ـ مادياً ـ عن مصير الكلب. رائحة مخيفة، ومنظر مقزز. وحزن منطقى مصدره المقارنة التى يجريها أحمد فى لا وعيه بين المصيرين؛ مقارنة تنتهى به إلى وجع القلب وذرف الدموع!.

ويعود أحمد ليقلب فيما خلفه أخوه من أوراق: وفتح الألبوم عند أولى صحائفه، فرأى صورة كبيرة لرشدى تمثله واقفاً ويداه فى جيبى بنطلونه، ما أجمله وما أنضره!.. وسرعان ما طرقت ذاكرته صورة الكلب الميت الذى كَدَّرَ جَوَّه يومين كاملين!. "نفسه ـ ٢٤٧"

لا جمال ولا نضرة بعد الموت. والدليل "الحى" هو صورة الكلب "الميت". فبالموت يتساوى الإنسان والكلب!

●● للكلب "جاموركا" وجوده الكثيف فى "عبث الأقدار" كتابع دائم وصديق مخلص لددف رع. بل إنه يبدو كواحد من أسرة المهندس بشارو: ولد جاموركا من أبوين عريقين من سلالة أرمنت، وقد استقبله ددف رع استقبالاً حفياً، ووهبه حجره يأوى إليه، وتوثقت عرى المودة بينهما منذ ذلك العهد المبكر. وقد قضت محبة ددف لصديقه أن ينشأ هذا نشأته الأولى فى حضنه وأن يتبعه فى أثناء نومه كظله. وأن يُلَقَّنْ اسمه "جاموركا" بلسانه

الحلو، وأن يكون أول نباحه نداء عليه، وأول تحريك ذيله القصير حفاوة به، ولكن وا أسفاه لم تخل طفولة جاموركا من عذاب، فكان التمساح الفاغر فاه واقفا له بالمرصاد ينغص عليه سعادته ويكدر صفوه، وكان إذا رآه نبح وبرقت عيناه وتصلب جسمه وكر وفر، ولا يهدأ حتى يخفى ددف تمساحه المخيف.

وكانا لا يكادان يفترقان، فإذا أوى ددف إلى سريره رقد جاموركا إلى جانبه، وإذا قعد ساكنا ـ وقليلا ما يفعل ـ جلس قبالته وبسط ذراعيه، أو مضى يلعق خديه ويديه كيف شاء حنانه واقتضت مودته، وكان يتبعه إلى مماشي الحديقة ويركب معه القارب إذا حملتهما زايا إليه للترويض في بركة القصر، فكانا يطلان برأسيهما من حافة القارب وينظران إلى صورتيهما في الماء، أما جاموركا فلا يسكت عن النباح، وأما ددف فيعجب لذلك الصغير الجميل الذى يشبهه ويعيش فى باطن البركة. "عبث ـ ٧١، ٧٢"

إنسان وحيوان يتصادقان منذ الطفولة المبكرة، وحياة مشتركة بين تابع ومتبوع، أو سيد ومسود، لا تختلف عن الحياة التى تجمع تابعى البشر بمتبوعيهم. ألعاب ومخاوف واكتشافات وتقارب يوشك أن ينسينا أن الحديث عن إنسان وكلب، فهما أقرب إلى طفلين من طبقتين مختلفتين تجمعهما الصداقة وتقفز بهما فوق فوارق الطبقات، مع ملاحظة أن الكلب من أبوين "عريقين" ومن سلالة كلبية متميزة!.

ومثلما ينمو ددف ويكبر وتنضج شخصيته، يترعرع جاموركا الذى لم ينج من فعل الزمن: فنما وضخم وقصر شعره الأسود الذى كان مسبلا؛ وتبدت على وجهه آى القوة والشدة، وعلى أنيابه بنيات القسوة والويل؛ وأجش صوته واخشوشن، فكان إذا نبح دوى نباحه دويا وبعث الرعب فى أفئدة القطط والثعالب والذئاب، وأعلن للملأ أن حارس القصر ساهر. وكان على صلابته وشدته أرق من النسيم على صاحبه وحبيبه ددف؛ الذى زادت الأيام ما بينهما توثقا ومودة، فكان إذا ناداه لبى، وإذا أمره أطاع، وإذا انتهره ذل وسكن. بل إنهما استغنيا بنجوى السرائر عن لغة الظاهر: فكان جاموركا يحس بمجئ ددف إلى البيت إحساسا خفيا، فيهرع إلى لقائه ولما يره. وكان يتعرف على باطنه بندرة عجيبة قد تخون أقرب الناس إليه. فكان يعرف حالات رضاه فيقبل عليه ملاعبا ويقفز واضعا يديه على منطقة وزرته،كما كان يحس بحالات تعبه أو ضيقه فيسكن بين قدميه مكتفيا بتحريك ذنبه. "نفسه - ٧٩، ٨٠"

ليس عبثا أن تتوالى الصفات الإنسانية على الكلب: الإحساس. نجوى السرائر، التعرف على الباطن. مراعاة الظروف النفسية والحالة المزاجية لددف!. إنه أكثر قربا إلى صاحبه من "أقرب الناس إليه". وعلاقة الصداقة والحب تنمو بنمو الطرفين. وينمو معها الإحساس بأنها علاقة إنسانية خالصة!.

ولأن جاموركا فرد من العائلة، فإن حنين ددف رع إله وهو فى المدرسة الحربية لا يختلف عن حنينه إلى أمه واخوته: فكأنه رأى زايا وهى تحنو عليه ونافا وهو يضحك ضحكته المرحة وخنى وهو يحدث حديثه المنطقى المتدفق.. وخال جاموركا العزيز يلعق خده ويحييه بذنبه. "نفسه ـ ٩١"

وفى فرحة الأسرة بالأجازة الأولى لددف تتألق فرحة الكلب الذى انتقلت إليه لهفة الخروج المنتظر: وكأن جاموركا قد استبشر خيرا وأحس إحساسا باطنا بأنه ينبغى له أن يفرح، فتمطى ونبح وعدا فى ممرات الحديقة كالسهم الطائش..

وهو أسرع من الأم فى استقبال العائد والترحيب به: فهجم على سيده بعنف واحتضنه بيديه وعلا نباحه يشكو إليه ما لقى من عذاب الشوق وآلام الحنين. "نفسه ـ ١٠٢"

أشواق إنسان إلى إنسان. ولهفة صديق إلى صديق!.

ولعل انشغال ددف بعالمه الجديد وحبه الملتهب للأميرة قد حالا دون ملاحظة ما طرأ على جاموركا من الجمود والفتور. "نفسه ـ ١٢٧"

ويأتى الموت مصحوبا بكل ما يصاحب الموت الإنسانى من قلق وتوتر. ينظر ددف إلى أمه بعينين كئيبتين ويسألها:

ـ ما له يا أماه؟

فقالت المرأة:

ـ تشجع يا ددف إنه يحتضر!

فارتاع الشاب لتلك الكلمة المرعبة وقال محتجا:

ـ كيف حدث هذا؟ لقد لاقاني في الصباح كعادته.

ـ لم يكن كعادته يا عزيزي. إلا إذا كان فرحه بك محا آلامه ساعتئذ. لقد طعن في العمر يا ددف وبدا عليه في الأيام الأخيرة وهن الوداع..

فاشتد الألم بددف وتحول إلى الصديق الأمين وهمس في أذنه بحزن عميق:

ـ جاموركا.. ألا تسمعني؟ جاموركا!

فرفع الكلب الأمين رأسه بصعوبة، ونظر إلى مولاه بعينين لا تريان شيئا كأنه يودعه الوداع الأخير، ثم عاد إلى نومه الثقيل. وجعل يئن بصوت مبحوح. فناداه مرة بعد أخرى ولكن نداءه لم يحرك به ساكنا. وخيل إليه أن وطأة الموت تشتد على الصديق الأمين. ورآه يلهث ويفتح فاه ويغلقه. ثم رآه ينتفض انتفاضة ضعيفة ويسكن إلى الأبد. وناداه من أعماق قلبه "جاموركا" فضاع النداء سدى.. ولأول مرة في حياته العسكرية ذرفت الدموع من عينيه، وانتحب باكيا يودع رفيق الطفولة وحبيب الصبا وصديق الشباب..

ورفعته أمه بين يديها وجففت دموعه بشفتيها، وأجلسته إلى

جانبها على فراشها وعزته بكلمات رقيقة، ولكنه لم يسمع إليها ولم تنفرج شفتاه في تلك الليلة إلا عن قوله: أماه أريد أن يحنط ويحفظ في تابوت في الحديقة في البقعة التي كنا نلعب فيها معا، حتى ينقل إلى قبري حين يدعوني الرب. "نفسه - ١٣٥ - ١٣٦"

صداقة الحياة تتوافق مع حسرة الموت، وكل هذا الحزن الإنساني الطاغي هو المحصلة المنتظرة من علاقة لم يكن بقادر على إنهائها إلا الموت. وليست رغبة ددف في تحنيط جثة كلبه العزيز إلا مراودة لحلم اللقاء من جديد. لقاء في العالم الآخر لا نهاية له!.

وتبقى ذكرى جاموكا حية في نفس ددف الذي لا ينسى أن يضع زهرة لوتس على تابوت جاموركا قبل أن يودع بيته في طريقه إلى قصر صاحب السمو الفرعوني الأمير رعخموف. "نفسه - ١٤٣"

حياة جديدة لا تتسع لمشاركة جاموركا، وكأن موته ضرورة فنية لتوديع مرحلة كاملة من العمر والتهيؤ لاستقبال مرحلة جديدة مغايرة!.

●● منذ العنوان، وحتى الكلمة الأخيرة التي ينطقها سعيد مهران قبل قتله، يلعب الكلب دورا محوريا في تشكيل العالم الروائي في "اللص والكلاب" التي لا يمكن فهمها واستيعاب أبعادها المختلفة بمعزل عن هذ الدور.

- المفتاح الأول للفهم نجده في ذلك الحوار الدال بين سعيد ونور. يقول سعيد مهران ببساطة:

- أكثرية شعبنا لا تخاف اللصوص ولا تكرههم.

وتواصلت خمس دقائق في التهام الشواء ثم قال:

- ولكنهم بالفطرة يكرهون الكلاب..

فقالت باسمة وهي تلعق أناملها:

- أنا أحب الكلاب..

- لا أعني هؤلاء.. "اللص - ١٢٩. ١٣٠"

اللصوص الذين يعنيهم سعيد ليسوا لصوصا عاديين بقدر ما هم أبطال شعبيون متمردون يجسدون - على طريقتهم - نبض الأحلام الشعبية. والكلاب الذين يعنيهم - أيضا - ليس تلك الحيوانات التي تمتلئ بها الحياة ويتباين الموقف تجاهها بين الحب والكراهية. ولكنه يعني الكلاب - البشر: الكلاب التي تتجسد في شخصيات تحمل الأسماء الإنسانية بلا مضمون حقيقي مثل أعدائه عليش ونبوية ورءوف علوان والجهاز الأسطوري الذي يطارده.

ويزداد الوعي وضوحا في مقولة مضيئة كاشفة لسعيد: لا بد أن ينتصر على الغدر والفساد. ولأول مرة سيطارد اللص الكلاب. "نفسه - ١٧٦"

العادى والمألوف أن الكلاب - الحيوانات تطارد اللصوص - البشر - ولأن الأدوار تتبدل فالمعادلة تختلف. اللص الضمير يطارد الكلاب - الخيانة.

على الكلب - الحيوان أن يتنحى ليفسح الطريق أمام أشباه البشر الذين لا يستحقون شرف الانتماء إلى الجنس المحسوبين عليه. وليس عبثا أن يقترن هؤلاء الخونة بالكلاب دائما على لسان اللص الشريف الحالم بالعدالة المستحيلة.

فى الصدارة يأتى عليش. الصديق الخائن والنذل الذى باع. ويتوالى اقترانه بالكلب عند سعيد:

أنسيت يا عليش كيف كنت تتمسح فى ساقى كالكلب؟. "نفسه - ٩"

لم يقبض على بتدبير البوليس. كلا. كنت كعادتى واثقا من النجاة. الكلب وشى بى. بالاتفاق معها وشى بى. "نفسه - ٣٢"

خانتنى مع حقير من أتباعى. تلميذ كان يقف بين يدى كالكلب. "نفسه - ٣٢"

أليس عجيبا أن يكون علوان على وزن مهران؟! وأن يمتلك عليش تعب عمرى كله بلعبة الكلاب؟. "نفسه - ٣٧"

كيف تميل إلى الكلب وتعرض عن الأسد؟. "نفسه - ١٠٧"

عليش يبدو كلبا بأثر رجعى فى ذروة صداقته: يتمسح كالكلب.

ويقف كالكلب، وهو كلب في خيانته التى أنهت الصداقة والتبعية. وليس رؤوف علوان: الصحفى المثقف التقدمى الانتهازى الزائف، إلا كلبا آخر من الذين عضوا سعيد مهران: - إن يكن فى القصر كلب - غير صاحبه - فسيملأ الدنيا نباحا. "نفسه - ٥٢"

وفكرة الهروب واردة: ولكن لننتظر حتى يغمض الكلب عينيه. "نفسه - ١٤٨"

ومن العداء الشخصى المباشر إلى عداء السلطة ونماذجها ورموزها مثل المخبر الموصوف من سعيد بأنه جرب الكلاب. "نفسه - ١٤"

ومثل التابع بياظة: ألم تعرفنى يا بياظة الكلب؟! "نفسه - ١٣٦"

ولا يجد سعيد ما يصف به الطلبة الذين اعتدوا على نور إلا قوله: الكلاب. "نفسه - ١٢٢"

منظومة كاملة من الكلاب العادية: عليش ورؤوف والمخبر وبياظة والطلبة الأوغاد، ولذلك يجمعهم سعيد فى سلة واحدة دون تحديد ويجعلهم هما واحدا مترابطا فى قوله لنور: لم الإلحاح على حديث القلوب. اسألى الخائنة واسألى الكلاب واسألى البنت التى أنكرتنى. "نفسه - ٧٤"

ولنفسه أيضا يقول: ما معنى حياتك إن لم تؤدب أعداءك؟. ولن تحول قوة دون تأديب الكلاب. "نفسه - ١٢٧.

ومع اقتراب النهاية، نهاية الرواية ونهاية سعيد، يزداد التوتر ويتصاعد دور الكلاب ـ الحيوانات والبشر ـ فى تشكيل إيقاع لاهث يوحى بالذروة الأخيرة: وكان يخشى الكلاب ولكن لم يكن فى وسعه حيلة. "نفسه ـ ١٧٧"

وقبل أن يخرج الصوت من حلقه ترامى من بعيد نباح الكلاب..

أخيرا جاءت الكلاب وانقطع الأمل. "نفسه ـ ١٧٨"

وحرك مسدسه في غضب والنباح يشتد ويقترب. "نفسه ـ ١٧٩"

يتحد نوعا الكلاب: الحيواني والإنساني. لطاردة سعيد وحصاره. وليست وعود المطاردين بالمعاملة الإنسانية مما يستدعي الثقة: كإنسانية رؤوف ونبوية وعليش والكلاب!. "نفسه ـ ١٧٩"

لقد عاش سعيد مهران عمره مطاردا بالكلاب القاسية التى تصر على موته، وتحقق لهم ما أرادوه!. وقبل أن يترك سعيد دنياهم، صرخ في جنون: يا كلاب.. "نفسه ـ ١٨٠"

وكانت كلمته الأخيرة التى سقط بعدها مختتما صراعا لا تكافؤ فيه: إنسان فرد فى مواجهة مطاردين أشداء من البشر ـ الكلاب ومن كلاب المطاردة المدربة. بشر يقتلون ويمسخون ويشوهون ويخونون، وكلاب تنبح وتطارد ولا تعى أنها تخلت عن وظيفتها الحقيقية لمن يقودونهم من كلاب البشر!.

تم اختصار أسماء مؤلفات نجيب محفوظ الواردة في متن الدراسة،

على النحو التالي:

عبث الأقدار	= عبث	رادوبيس	= رادوبيس
كفاح طيبة	= كفاح	القاهرة الجديدة	= القاهرة
خان الخليلي	= خان	زقاق المدق	= زقاق
بداية ونهاية	= بداية	بين القصرين	= بين
قصر الشوق	= قصر	السكرية	= السكرية
اللص والكلاب	= اللص	أولاد حارتنا	= أولاد
السمان والخريف	= السمان	الطريق	= الطريق
الشحاذ	= الشحاذ	ميرامار	= ميرامار
المرايا	= المرايا	الحب تحت المطر	= الحب تحت
حكايات حارتنا	= حكايات	الكرنك	= الكرنك
الحرافيش	= الحرافيش	أفراح القبة	= أفراح
ليالي ألف ليلة	= ليالي	الباقي من الزمن ساعة	= الباقي
أمام العرش	= أمام	العائش في الحقيقة	= العائش
يوم قتل الزعيم	= يوم	حديث الصباح والمساء	= حديث
همس الجنون	= همس	دنيا الله	= دنيا
بيت سيئ السمعة	= بيت	خمارة القط الأسود	= خمارة
شهر العسل	= شهر	الجريمة	= الجريمة
الحب فوق هضبة الهرم	= الحب فوق	الشيطان يعظ	= الشيطان
رأيت فيما يرى النائم	= رأيت	التنظيم السرى	= التنظيم
تحت المظلة	= تحت	حكاية بلا بداية ولا نهاية	= حكاية

للمؤلف

أولا ـ الروايات

- الصورة، الهيئة العامة لقصور الثقافة، سلسلة أصوات أدبية، ١٩٩٥.
- لمحات من حياة المواطن م. ب. الهيئة المصرية العامة للكتاب، مكتبة الأسرة، ١٩٩٦.
- أحلام سرية، دار الأحمدى للطباعة والنشر، ١٩٩٨.

ثانيا ـ النقد:

- صورة الموظف فى روايات نجيب محفوظ، مكتبة السلام، المنيا، ١٩٩٠.
- الرؤية الوفدية فى أدب نجيب محفوظ، على نفقة المؤلف، طبعة محدودة، المنيا، ١٩٩١.
- الفكاهة عند نجيب محفوظ، الشركة المصرية العالمية للنشر ـ لونجمان، ١٩٩٤.
- عصير الشخصية المصرية.. قراءة فى رباعيات صلاح جاهين، الهيئة العامة لقصور الثقافة، ١٩٩٦.
- معجم أعلام نجيب محفوظ .. دراسة تحليلية، مطابع الأهرام، ط ١ ـ ١٩٩٧ ، دار الأحمدى، ط ٢ ، ١٩٩٨.
- معجم أعلام "شقة الحرية" لغازى القصيبى، مطابع الأهرام، ١٩٩٧.
- محمد بن عبد الله، صلعم" فى عيون الأدب العربى، دار الهدى، ١٩٩٨.
- جمال عبد الناصر فى عيون الأدب العربى، دار الهدى، ١٩٩٨.
- معجم أسماء قصص يوسف الشارونى، مركز الحضارة العربية، ١٩٩٩.

- أستاذ الجامعة فى عالم نجيب محفوظ، دار الهدى، ٢٠٠١.
- اليهود فى عالم نجيب محفوظ. طبعة محدودة، ٢٠٠١.
- الفلاح والسلطة فى أدب يوسف القعيد. دار الهدى، ٢٠٠١.
- الفلاح والسلطة فى السينما المصرية، جامعة المنيا، ٢٠٠١.
- الكلب فى عالم نجيب محفوظ. طبعة محدودة. ٢٠٠١.
- أمريكا فى عيون نجيب محفوظ. طبعة محدودة. ٢٠٠١.

ثالثا .كتب للأطفال

- الحياة الجميلة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠.
- سيدة القرن العشرين. دار الأحمدى. ١٩٩٩.

سيكون المؤلف سعيدا إذا تفضل القارئ الكريم بإبداء ما قد يعن له من ملاحظات على العنوان التالى :

مصطفى على أحمد بيومى "مصطفى بيومى" ــ ١٧ ش ابن خصيب ــ المنيا.

ت : ٠١٠٥٧٦٢٥٩٧ ـ ٠٨٦/٣٥٥٣٩٩

